عارياً أمام الآلهة



شيڤ ك. كومار

ترجمة: طلعت الشايب

عيون الأدب الآسيوي

دار شرقيات للنشر والتوزيع







عارياً أمام الآلهة

Nude Before God

Shiv K. Kumar

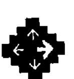
Penguin Books, 1987

عارياً أمام الآلهة

تأليف : شيڤ ك. كومار

ترجمة: طلعت الشايب

الطبعة الأولى لهذه الترجمة ١٩٩٨



دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي،
الرقم البريدي ١١١١١
باب اللوق -القاهرة
ت: ٣٩٠٢٩١٣
س. ت: ٢٦٩١٩٨

غلاف: ذات حسين
لوحة الغلاف: لوحة من
القرن التاسع عشر
للإلة الهندي «فشنو»
(الحافظ) كرمز للكون.



رقم الابداع ٢٨ /٧/ ١٩٩٨/
الترقيم الدولي ISBN 977 -283 -097- 3

عارياً أمام الآلهة

شيف ك. كومار

ترجمة: طلعت الشايب



دار شرقيات للنشر والتوزيع



«إن مركز الوعي الذي كان موجودا قبل الموت لايتوقف بعده، وتجربته بعد الموت لها نفس الاستمرارية مع تجربته قبله، تماما مثل تجربة شخص ينام فترة ثم يستيقظ..»

«دبليو.آر.ماثيوز»

«إن الروح التي رأت معظم الحقيقة، سوف تولد من جديد في هيئة فيلسوف أو فنان أو موسيقى أو عاشق...»

«أفلاطون»



عزيزى رام كريشنا

وصفني ناقد لاذع ذات مرة بأنني منتحل يتظاهر بالخجل، وذلك لأنني سرقت عنوان قصيدة مجهولة ووضعته عنوانا لإحدى رواياتي القصيرة. وحيث أنني قد لدغت مرة، فها أنذا أعلن على الملأ أن هذا عملك أو خيالك أو كما تريد أن تطلق عليه.. ورغم أنك رسام ولست كاتبا محترفا مثلى، فإني لا أريد أن يلومنى لائم هذه المرة على العبث بمخطوطة شخص آخر، ولذا أقول أن العنوان الذي اقترحته لعملك هذا هو كل ما أسهمت به، لأنني رأيتك تظهر من قلب الله و«ياما» كيوم ولدتك أمك، مجردا من كل دفاعاتك...

أعرف أنك مررت بتجربة مرعبة، ولكن لاتخش لموت، فالموت وإعادة الميلاد هما وجها التجربة ذاتها... وإذا كان الموت هو فشل الجسد في مواجهة تحديات الحياة، فإن إعادة الميلاد ليست مجرد عودة ثانية وإنما حلقة في سلسلة لاتنتهي من العودة إلى الأرض لكي تحاول الروح إعادة تجربتها مرة بعد مرة...

بارك الله فيك.

المخلص...

ش. ك.ك...

ملحوظة:

إن وسيلة التغلب على الخوف من الموت، هى أن تمنعه من أن يصبح هما يتملكك، وذلك بأن تجعل عقلك يستغرق في العمل... الذي هو الرسم في مثل حالتك. ارسم كثيرا وتناول نساءك بجرعات معقولة.. ففي ذلك خلاصك، ولكن... هل ينبغى لي أن أبدأ بتقديم المواعظ!؟

– ١ –

طقطقت النار واضطرمت، اندلعت ألسنة اللهب في الهواء تتراقص مثل كوبرا معصوبة العينين مسحورة بترنيمة كاهن أمام «إندرا»[١] إله المطر:

ياسيد الماء
يامطهرناوحافظنا
ومدمرنا
أغفر لنا خطايانا

كان وجودي هنا في معبد «شيڤا» [٢] لحضور طقس النار مجاملة لرئيس جمعية «إخوان اندهرا للإنعاش الاجتماعي»، ذلك الهندوسى المخلص، أكثر مما هو للمشاركة في تلك الشعائر استرضاء للإله. الأمر بالنسبة لي مجرد عمل تجارى، حيث كانت الجمعية قد اختارتني لرسم بعض مناظر الفيضان الجارفة لحساب أحد المعارض المقامة في قاعة اليوبيل، كجزء من برنامج يناشد الضمير العام لمساعدة المتضررين.

ورغم أن الصلوات كانت قد أقيمت كذلك في كافة المساجد والكنائس الرئيسية في المدينة، إلا أن المطر ظل يهطل دون توقف، وقد ارتفع الماء في نهر موسى ليغرق عددا من المنازل على طول شاطئيه وينشر الدمار في كل مكان، وعلى الجانبين كانت الجثث المنتفخة على وشك الانفجار، وهي ملقاة في انتظار من يحرقها أو يدفنها.

وعندما عدت إلى المنزل بعد الانتهاء من الطقس، كان المساء قد حل، وبمجرد أن وطأت قدمى غرفة المعيشة دق جرس الهاتف.

– «من ؟»

لا أحد يرد. كررت السؤال: «مرحبا! من ؟»

وبعد صمت قصير جاء الصوت:

---

(١) إله السماء الذي يرسل الأمطار والعواصف والصواعق، وهو أيضا إله الحرب، وإله الشمس التي تولد الحى من الحي ويصور غالبا في هيئة شخص بهى الطلعة يركب فيلا، (المترجم).

(٢) إله اسمه يعنى الميمون أو البشير وينظر إليه على أنه المدمر ولكنه الدمار الذي يسبق الخلق الجديد ويعتبر الثالث في الثالوث الهندى المقدس بعد الإلة «براهما» والإله «اندرا».

– «هل السيدة «رام كريشنا» موجودة من فضلك؟.» الصوت صوت رجل، متلعثم، سمعته يبتلع ريقه..

أجبت – «ليست موجودة الآن، هل تود أن تترك رسالة؟»

وبعد فترة صمت أخرى كان الرجل يتنفس أثناءها بصعوبة مثل عَدّاء مهزوم في سباق الحواجز، قال:

– «حسن! حبذا لو.....»

كان يتكلم بتثاقل متعب!

ومثل ضباب عفن في صباح شتوى، ارتفعت بداخلى فكرة كئيبة. ترى هل هو عشيق لزوجتي «مارى»؟

سألت بهدوء: «هل أعرف من يتكلم من فضلك؟»

كنت أحاول أن استدرجه في الكلام رغم نمو الغضب بداخلى..

– «أنا كينيث چورچ».

ثم عاد الصمت البارد إلى سماعة الهاتف. تذكرت أن شخصا ما كان قد وضع السماعة قبل ذلك بمجرد أن سمع صوتي.

شعرت بطعم رماد بارد على لساني وتقلص في أمعائي، وانتابني إحساس غريب لاذع مثل ثمرة المارجوزا[1]، فاستلقيت على الأريكة مشغول البال مشوش التفكير. في الخارج كانت الريح تعوى وحبات المطر الكبيرة تضرب زجاج النافذة، أضأت الأنوار فإذا بالثريا المعلقة فوق رأسى تبدو لي كأنها جثة مدلاة من مشنقة

قلت لنفسي: ماذا يعني هذا الاسم؟ كل شيء! «مارى» إذن قد عادت إلى رفيق مسيحى... ياللغرابه... ووالدى قد أسمانى على اسم الإله «راما كريشنا»![2].. وعندما سمعت صوت سيارة تقف أمام البوابة الخارجية دخلت «مارى»، بادية النضارة والحيوية.

– «أين كنت؟»

– «كنت أتسوق»

(١) ثمرة شجرة المارجوزا الهندية وهي طيبة الرائحة رغم طعمها اللاذع وتستخدم في صناعة الزيوت الطبية – (المترجم).

(٢) «راما هو التجسيد الثالث للإله «فشنو» وهو صاحب الفأس الذي دافع عن البراهمة ضد النهب الملكي و«كريشنا» هو التجسيد الثامن لنفس الإله واسمه يعني حرفيا الأسود ويقال ان الإله «فشنو» انتزع شعرة سوداء من رأسه فأصبحت بعد ذلك الإله «كريشنا» وهو من أكثر الآلهة شعبية لدى الهنود وتروى القصائد والقصص عن مغامراته وعبثه مع الراعيات الأسطوريات وعزفه على الناي ويقدسه رعاة الماشية بصفته رب الإخصاب (المترجم).

- «ومن أوصلك إلى هنا؟»

- «شخص ما أوصلني بسيارته»

قلت وأنا أحدق فيها ساخرا: «شخص ما؟»

- «نعم!»

- «من هو؟»

قالت دون اكتراث: «شخص ما كان يتسوق من محلات «چين»، ألم يكن لطيفا منه أن يقوم بذلك؟ لولاه لكان المطر....» قاطعتها وعيناي مازالتا تفتشان وجهها بحثا عن مفتاح لذلك اللغز

- «كان هناك مكالمة هاتفية لك.»

- «ممن؟»

وبمثل سرعة المصور الذي يرفع يده قبل أن تنتهي ومضة الفلاش قلت - «كينيث چورچ».

ودون أي بادرة على عدم الارتياح أو الشعور بالذنب همهمت - «ياه! وماذا قال؟»

- «لا شيء»

ابتسمت - «هكذا؟»

عدت لأسألها - «من هو؟»

كانت نبرتها اللامبالية تقطعني مثل طعنة رمح وبخاصة عندما ضحكت ضحكه مكتومة، اللغز يزداد غموضا! ثم سألتني وهي تهم بالخروج من غرفة المعيشة: ماذا دهاك يا «رامى»؟ تعجبت بيني وبين نفسي لتلك الوقاحة وأغلقت الباب وراءها. شعرت كأن السقف يسقط فوقي ليدفنني تحت الأنقاض، وعندما دقت الباب بعد ساعة تدعوني لتناول العشاء قلت لها بحدة:

- «لا أشعر بالجوع، واتركيني وحدى من فضلك»

قالت محتدة - «يبدو أنك قد دخلت في حالة من حالاتك إياها.»

ثم تركتني.

كنت أذرع الغرفة جيئة وذهابا مستفزاً، حائرا، ترتفع سخونة الشك بداخلي وتتعمق الهواجس. هل كنت أحمقا مرتين لأنني تزوجت مسيحية، وطالبة من طلبة الفنون عندي أيضاً؟

لم تكن «مارى» رسامة محترفة، كانت ترسم من وقت لآخر... إلا إنها.... وهاهي الآن تجد لها عشيقا مسيحيا، ربما كان انتماء الزوجين إلى نفس المهنة سببا في فشل الزواج، وربما كان ذلك أيضا نوعا من ضيق الاختيار أو محدوديته. الرسام لابد أن يتزوج من بائعة في محل، من مهندسة، أو ممرضة، أو طبيبة، أو طابعة... والحقيقة أن أنسب شيء بالنسبة له هو «ربة البيت»، بشرط أن تكون إنسانة بسيطة وجميلة، تطعمه، تدلك له ظهره في الحمام، تنام معه، ثم تتركه بعد ذلك لعمله.

ضبطت نفسي متلبسا بالتحديق في بقعة في سقف الغرفة لها شكل حيوان زاحف واسع الشدقين، يجر نفسه فوق بطنه المرقط المحرشف. في الأسبوع الماضي كنت أبحث عن فكرة للوحة عن الموت.... فكرة لنفسي.. فكرت أن أرسمه على شكل نسر أسود أو حيوان.. وها أنذا الآن أشعر بأن روحا غريبة قد قدمت لي هذا الشكل على سقف الغرفة. وأثناء مراقبتي لهذا الشكل الغرائبي رحت في النوم، وعندما فتحت عيني في الصباح التالي كان هناك أمامي... نفس الحيوان الزاحف يحدق في بعينين سحريتين جاحظتين...

وضعت الحذاء في قدمى، وطردت الفكرة من رأسى ودخلت الحمام وعقلى مايزال مشغولا بالمكالمة الهاتفية، جرحت نفسي أثناء حلاقة ذقنى، وجرحت لثتى بفرشاة الأسنان، فتحت الصنبور الخطأ، الساخن بدل البارد، والبارد بدل الساخن وحيث لا أثر ل«مارى» في أي مكان قريب (هل مازالت في السرير؟!) طلبت من «رامو» أن يعد لي الإفطار في الشرفة وأثناء جلوسى أتناول إفطاري كان «بيتر» كلبى الأبيض الصغير ذو الشعر الطويل يرقد بالقرب مني، خطمه بين قدميه الصغيرتين وكأنه خائف من ملامحى المتجهمة. نظرت. المطر توقف. الشمس تصعد درجات الأفق. جمرتها البرتقالية تتعمق بالتدريج لتصبح وهج الأيام الأخيرة من شهر يوليو. كان الضوء المتسلل من بين القضبان المتصالبة ينتشر على أرضية الشرفة في مربعات صغيرة.

سألني «رامو» وهو واقف خلفي: «هل تريد مزيدا من القهوة ياسيدي؟» قلت وأنا أنظر في ساعتي: «نعم! لدى وقت لفنجان آخر.» وبعد أن انتهيت من إفطاري ووقفت مستعدا للانصراف ناولني «رامو» جريدة الصباح.

قلت بهدوء: «ولماذا لم تحضرها قبل ذلك، لأنتهى منها مع القهوة؟»

- «آسف ياسيدي»

- «ضعها في السيارة، لاوقت لدى الآن»

- «حاضر ياسيدي»

- «وخبرّ السيدة «أنني قد أتأخر الليلة ولذلك لاضرورة للعشاء... ولا لأي شيء آخر. مفهوم؟»

- «نعم ياسيدي!»

من وميض عينيه يبدو أنه يعرف شيئاً ما عن ذلك المزق في علاقتي أنا و«مارى»، وعند خروجي من الشرفة كان «بيتر» يتبعني بنظرات حزينة واهنة وكأنه يقول: هل أنت غاضب مني أنا أيضا ياسيدي؟ لم تكن حالتي النفسية تسمح لي بأن أدلله، حرب داخلية تأكلني!

لم أكد أعبر «جسر ريدى» بسيارتي فوق سكة حديد «بخارى» وحتى وجدت نفسي في ذيل مابدا موكب جنازة طويل. الطريق مغلقة تماما، معظم السيارات والدراجات تقوم بالالتفاف لتفادي الموكب. عيون الجميع كلها مثبتة على الجسد المسجى.

في مكان عميق مني يكمن خوف شديد من الموت، من أن أغمض عيني هكذا إلى الأبد قبل أن أحقق شيئاً، وكان اهتمامي الأخير بالسيول والجثث يعمق من هذا الخوف الذي أصبح يطاردني في كل وقت وفي كل مكان. صفحة الوفيات هي أول ما أقرأ في الصحف. أدقق في التفاصيل المكتوبة عن الموتى. العمر، الوظيفة، سبب الوفاة.. الخ. وطبقا لمتابعتي في شهر يونيو على سبيل المثال كانت نسبة المتوفين بأمراض القلب ٥٠ ٪، بالسرطان ٢٠ ٪، باللوخيميا ١٠ ٪ أما الباقي فسببه حوادث أو جرائم قتل. وإذا كانت مواكب الجنازات تشغلني، فذلك لأنني أعتقد أنها يمكن أن تحصن المرء ضد هذا الخوف من الانقراض. لابد أن يشارك فيها المرء لتسري عنه كأنها لوحة حية مؤداة على خشبة المسرح. ورغم أن ذلك قد يبدو متناقضا، إلا أن أفضل طريقة للاستمتاع بالحياة هي أن تواجه الموت نيابة عن الآخرين. تركت سيارتي عند حاجز الطريق واندمجت مع الموكب. ينتابني شعور بأنني مثل أحد الطفيليين الذين يدعون أنفسهم إلى حفلات الزفاف ويتحركون بثقة وهدوء كأنهم من أقارب العروس المقربين، وتذكرت أحد الضيوف الذين جاؤوا إلى حفل زواجي دون دعوة. كان رجلا عجوزا ضامر الجسم وقف لصق البوفيه يزدرد برياني الأرز والدجاج المحمر وفطائر الفاكهة دون أن يرفع وجهه عن الأطباق ولو مرة واحدة. كان مثل اللص الليلي الخائف، يجمع الملابس والأشياء من إحدى الشقق على عجل ومستعد للقفز من النافذة قبل أن يدهمه نور كشاف ضوئي.

ولكن الانضمام إلى موكب جنازة شخص لاتعرفه قد يعتبر لمحة من لمحات الشهامة... ألا يشبه المشاركة في تكريم ميت مجهول؟ سألت رجلا رث الثياب يبدو أنه نجار أو عامل لحام:

- «جنازة من هذه من فضلك؟»

- «جنازة «راما سوامى»، ألم تقرأ صحف الصباح؟»

- «لا. «راما سوامى» الزعيم العمالى؟»

- «نعم! مات ليلة أمس في حادث سيارة»

- «آسف، لم أسمع بذلك...»

ثم أسرعت الخطى مع الزحام. وهكذا قضى أحد زبائني المتميزين نحبه! «راما سوامى» الزعيم العمالي في ولاية «آندرا براديش»، تلك الشخصية المثيرة للجدل. ولكم كانت هناك دائما أسباب قوية لقضاء وقت طويل مع شخص مثله كانت حيويته وصراحته تخلبني دائما. يدفع بسخاء مقابل البورتريه الذي أرسمه له، وكان يشيع البهجة في جو الاستوديو عندما يحضر، ولم يحضر أبدا خالى الوفاض، دائماً معه زجاجة و«يسكى» أو «چن» ولم يأت وحده أبدا، في كل مرة امرأة جديدة تؤنس صحبته. عندما بدأت المسير مع الموكب تذكرت كيف شنت عليه جريدة في «بومباى»، في الأسبوع الماضي فقط، حملة بسبب فساده، وكيف استطاع أن يجمع ثروة طائلة عن طريق ابتزاز رجال الصناعة في الولاية. والحقيقة أن الجميع يعرف قدرته على إصابة أي صناعة بالشلل التام عندما يدعو العمال للإضراب في أي وقت وفي أي مكان. جاء ذات مرة لزيارتي في الاستوديو وطلب أن أرسم «بورتريه» له، ورحت أثناء سير الموكب أتذكر حديثنا معا بكل تفاصيله.

سألته صراحة: «هل تريد هذا البورتريه لنفسك؟»

قال: «لا... إنهم يريدون أن يعلقوه في القاعة الرئيسية في مبنى اتحاد العمال.. ولم لا؟ لم لا أحصل على نصيبي من الخلود؟»

- «ومن الذي سيدفع ثمنه؟»

- «العمال طبعا، إذا كنت أحصل لهم على زيادات في الرواتب وعلاوات وإجازات خاصة ومزايا طبية وأجور كاملة حتى أثناء الاضرابات... ألا أستحق شيئاً في مقابل ذلك؟»

كنت مدهوشا لهذه الأفكار التي لا يشوبها ذرة من تأنيب للضمير، ولكن صراحة الرجل كانت تخفف من غضبي.

كان يقول دائما: «دعني أقول لك شيئاً، إذا لم يكن بداخلك شر فلن تستطيع أن تصنع أي خير للناس. وأنا لست شريرا إلى ذلك المدى ياسيد «كريشنا»، أنا أشارك الأصدقاء في فعل الخير أيضا.. الأصدقاء من أمثالك». ونظر في عيني وهو يهمس: «لقدكنت أحضر كل أولئك النساء إلى هنا... تدرى لماذا؟»

- «لا»

- «ألا تحتاج إلى نوع من التغيير بعد كدح اليوم؟ عمل.. عمل.. ولا نصيب للعب؟»

قلت مبتسما - «بالتأكيد..»

- «هل تروق لك إحداهن؟»

نظرت إليه مستغربا فقال: «أقصد أن بإمكانك أن تختار أفضل من في الباقة.»

ثم لاحت على وجهه ابتسامة فسق.. «نعم... يبدو عليهن الفقر، ولكن دعني أقول أنهن في منتهى الثراء في الفراش.. الإيقاع.. والرقص الحقيقى» وضحك ضحكة خافتة.

قلت محرجا: «لا... شكرا...»

عند هذا الجزء من الحوار الذي دار بخيالي، نظرت لأجد أن الموكب كان قد اتجه نحو «معبر جول». في مقدمة الموكب الطويل اثنان من المنشدين يرددان جملة تتلوى في الفضاء نحيبا حادا، خلفهما ثلاثة من قارعى الطبول عراة حتى الخصر، يهزون رؤوسهم وهم يدقون الطبول بعنف شديد، تتدفق منهم حبات العرق غزيرة وتنحدر من رقابهم على ظهورهم التي ألهبتهاالشمس.

فرقة موسيقية إذن ترافق «راما سوامى» إلى «سافارجا»* مستقره الأخير... حيث أتخيل أن سيكون في انتظاره هناك الويسكى والنساء.

عندما كنت أراقب بعض النسوة اللائي يسرن خلف قارعى الطبول وبعضهن صغير السن وجميل، كنت أتساءل بيني وبين نفسي.. ترى كم واحدة منهن نامت مع الزعيم؟ الوجوه تبدو واهنة وحزينة... ألم يجلب لهن الأجور العالية والعلاوات والمكافآت.. وقبل ذلك كله وبعده... الحب؟! والآن هاهو قد قضى نحبه.

هل يولد من جديد؟ هل يولد في هيئة «موريس شيفالييه» أو «كارى جرانت»؟

من أسف أن الخيال الهندوسى لايسافر بعيدا حتى أوروبا أو الولايات المتحدة، الروح الهندوسية لابد أن تعود إلى أرضها الأم... الأرض الهندية... تعود في هيئة إنسان - إن كان المرء محظوظا - وربما في هيئة حصان أو بغل أو عجل يجر عربات القمح أو الأرز في شوارع «حيدر أباد» أو «مدراس» أو «أجرا»...

... في هذه الحالة، فإن «راما سوامى» سوف يولد مرة أخرى في هيئة ثور من ثيران الإستيلاد!

---

* العالم الآخر.

– ٢–

تقع محرقة «جيرد هارى لال» في نهاية شارع ضيق يسمى «مارتيو مارج» أو طريق الموت، وهي بناء ضخم من حجر البنچارا، له بوابة خشبية هائلة وسلسلة حديدية ضخمة تتدلى من خطاف، كأنها مدخل قلعة من قلاع المغول. ولكن المحرقة مفتوحة في جميع أوقات النهار والليل لاستقبال الموتى. وفوق البوابة الرئيسية تمثال كبير للإله «ياما» [١] إله الموت، بينما تظهر تماثيل صغيرة على كلا جانبي السور الدائرية لآلهة مثل «راما» و«كريشنا» و«جانيش»[٢] و«سرى فنكاتسوارا».

والمار أمام البوابة تبدو له المحرقة مثل ساحة مفتوحة، وبالقرب من المدخل توجد غرفة يستخدمها كبير الكهنة مكتبا له، وهي مفروشة بأناقة. قطع قليلة من الآثاث المنجد ومقعدان من الخشب وطاولة كبيرة يجلس خلفها الكاهن في كرسيه الدوار. أمامه على الطاولة سجل ضخم ذو غلاف جلدى سميك، يسجل فيه بيانات كل متوف: الطائفة، المهنة، تاريخ الميلاد ... الخ.

خلفه على الأرفف التي تغطى جميع الجدران، قدور من الخزف مرتبة حسب الحروف الأبجدية بها رماد الموتى، يأتي أقارب المتوفي لأخذ القدر الذي يحتوى على رماده ليغمره في نهر الجانج المقدس بالقرب من «الله أباد» أو «بينارس» عندما يكونوا مستعدين لذلك.

عندما كنت أجيء إلى هنا لحضور عملية إحراق جثة ما، كنت ألقى نظرة خاطفة على غرفة الكاهن... أو مكتب التخليص الجمركي على الأرواح البشرية!

عندما وصل موكب جنازة «رما سوامى» إلى المحرقة، ظل النسوة في الخارج في مارتيو مارج (طريق الموت)، بينما سار الرجال في وقار خلف الجسد المسجى على محفة تحملها أكتاف أربعة من المشيعين.

كان باستطاعتي أن أتعرف على عدد من الشخصيات البارزة ورجال الصناعة وبعض المدراء

---

(١) إله الموت الذي يصطحب الأرواح إلى مملكة الظلام وتقول «الفيدا» أنه أول انسان مات ففتح هذا الطريق الموحش أمام البشر وهو حارس الجنوب الذي يشير إلى الموت. (المترجم).

(٢) إله الحكمة والحظ السعيد وهو ابن الإله «شيفا» والإلهة «بارفاتى» ويتضرع إليه في بداية الأعمال المهمة وقبل السفر كما تهدى إليه الأعمال الأدبية (المترجم).

من القطاعين العام والخاص وكبار المسؤولين في مديرية العمل والواقفين عند البوابة يحملون أكاليل الزهور والياسمين، وعندما تقدم هؤلاء لوضع ما بأيديهم على الجسد كانوا يتطلعون حولهم ليتأكدوا أن العمال يلاحظون ذلك. كان من الواضح أنهم يحاولون استغلال المناسبة للحصول على قرار رسمى بتأجيل دفع ما تراكم عليهم من ديون نتيجة للإضرابات.. ولو لبعض الوقت على الأقل.

بالقرب من الحافة الجنوبية للسور لمحت «بقشيش سنج» يقف بعيدا عن الزحام. وجوده هنا أثار فضولي، فمن المؤكد أنه كمدير لمعهد الحاسب الآلى، وهو أحد الأفرع السرية لوزارة الدفاع، كان مؤمنا ضد الاضرابات. توجهت نحوه وأنا أسأله:

– «ماذا جاء بك إلى هنا؟» ثم أشرت نحو كبار المسؤولين عند البوابة قائلا:– «وهل لديك أنت أيضا مشكلات تتعلق بالعمل؟»

ابتسم قائلا: لا.. «أنا هنا فقط لأن شقيق «راما سوامى» الأصغر أحد عملائي..»

– «هكذا..؟»

وبالرغم من أننا كنا نلتقي تقريبا يوما بعد يوم في «نادى النظام» إلا إنني لم أكن قد رأيته طوال الأسبوع الماضى، منذ أن اختارتني «جمعيه إخوان اندهرا» لرسم اللوحات. كان الركام جاهزا لإضرام النار به، والخشب المقطع مرتبا بحيث يوضع عليه جسد «راما سوامى» الملفوف في الحرير الأبيض. وعندما أشعل ابنه النار في الركام وهو يصب عليه الكافور و«الجيه»[(١)] تصاعدت ألسنة اللهب في الهواء. وعلى الفور بدأ مساعد الكاهن – وهو شخص أنيق لبشرته لون بنى – في تلاوة أبيات من البهاجا ڤادجيتا[(٢)].

«لا.. ولكن عندما ينضو الإنسان

عنه ثيابه البالية

ويتناول غيرها قائلا

سأرتدى هذه اليوم

هكذا تترك الروح ثوبها الجسد

وتصعد

---

(١) نوع من الزبد.

(٢) الأنشودة المقدسة وهي إحدى أكبر وأهم القصائد الهندية التي تحتوى على جوانب دينية وفلسفية عميقة وتوجد في الكتاب السادس من المهابهاراتا وينظر إليها باعتبارها أحد مصادر فلسفة الڤيدانتا (المترجم).

لكى ترث وجودا جديدا....»

كنت وأنا أستمع إلى هذه الأبيات أتساءل بيني وبين نفسي عما إذا كانت عملية الإحراق الرهيبة للجسد والتي أراها أمامي... تشبه بالفعل عملية استبدال ثوب بآخر.. لدرجة أنني تخيلت «راما سوامى» يصرخ في أي لحظة وسط ألسنة اللهب طالبا النجدة. ولكن الكاهن، الذي لم ينظر إلى الجسد نظرة واحدة، كان مستمرا في ترتيله بصوته البارد.... الرتيب.

طوال الطقوس، كان «بقشيش» يقف إلى جوارى صامتا، بلا حراك مثل أحد الأعمدة، عيناه فقط تتنقلان بين النار والكاهن، ووجهه يرجف بشدة وتتقلص ملامحه ألما واشمئزازا!

الوقت ظهيرة، والشمس بلُورة كبيرة معلقة في سماء زرقاء بليدة تلمع من بين مزق السحب البيضاء. لأشعة الشمس أزيز كأنها تستحث ألسنة اللهب التي كانت قد أتت على معظم الجسد وأحالته كوما من رماد. وصل الكاهن إلى نهاية ترتيله وأصبح صوته طنين نحلة تطير.....

«يأتي الميلاد دون أن يفهمه أحد

ويأتي الموت دون أن يفهمه أحد

وبينهما

تدرك الكائنات كل شيء...»

بدأ الزحام في التلاشى. وسرعان مافهمت أن أقارب «راما سوامى» المقربين سيبقون هنا إلى أن تخمد النار تماما. توجهت أنا و«بقشيش» نحو البوابة الرئيسية ونحن مانزال تحت تأثير ذلك المشهد الرهيب. أن نشق طريقنا وسط بحر المشيعين عبر طريق الموت كان بمثابة المرور عبر المطهر... ولم تهدأ أعصابي إلا بعد أن وجدت نفسي في الناحية الأخرى.

سألته: «أين تركت سيارتك ؟»

قال وهو يشير إلى عمود إنارة قريب: «هناك....»

– «أما أنا فقد اضطررت لترك سيارتي خلف معبر «جول»

– «دعنى إذن أوصلك إلى هناك!»

– «شكرا»

قلت ونحن في السيارة: «لماذا لاننتظر حتى ينتهي الزحام أولا وإلا سنضطر للزحف خلفهم ببطء...»

- «فكرة لابأس بها..»

جبينه المقطب يشي بأنه لم يتخلص بعد من أثر مشهد إحراق الجسد...

- «أما زلت هناك ؟»

- «لا أدرى... ألم يكن مثل شخص يشهد جسده وهو يحترق ؟»

ساد بيننا صمت قصير.

ثم سألته: «هل تؤمن بالميلاد مرة ثانية «يابقشيش» ؟»

- «نعم»

قلت مستغربا - «مع أنك من رجال العلم..»

قال بكل ثقة - «بالعكس، العلم أكد اقتناعى...»

- «كيف ؟»

- «انظر... إن الله ليس مدير مخزن. فما الذي يجبره على جمع الأرواح وتركها تتكدس في مخزنه، بينما الشيء المعقول هو أن يعيد تدويرها في الحياة؟ مثل الشمس عندما تبزغ مرة أخرى من رحم ليل مظلم إلى صباح جديد، والبحر الذي يتحول إلى بخار ومطر ثم إلى البحر مرة أخرى، مثل أصحاب محلات البقالة الأمريكيين عندما يطلبون من زبائنهم إعادة زجاجات الكولا الفارغة وعلب الصفيح. عملية احتفاظ بالطاقة. وإلا سيكون على الله أن يستخدم أجهزة الكمبيوتر لتسجيل أرقام الضمان الاجتماعى لعدد لايحصى من الأرواح»

- «لم أكن أتصور أن لديك نظرية بارعة عن هذا الأمر».

كنت مفتونا بتفسيره المدهش..

- «حسن!، هذه مسألة بدهية، وليست خيالا كسولا..»

سألته - «وهل تؤمن بالكارما* أيضاً؟»

- «هنا كذلك يكون لديك التفسير الوحيد المعقول لما قد يبدو تقلبات وتناقضات الحياة والموت- ميلاد طفل متخلف، الموت في حادث أو بسكتة دماغية أو لأي سبب آخر. إن مانراه

* «كارما» كلمة سنسكريتية تعني حرفيا الفعل والمصير وهي مصطلح في التراث الديني للهندوس يشير إلى مجمل أفعال الشخص في واحدة من حالات الوجود المتوالية وهي تقرر ما سيكون عليه وضعه في الحالة التي تعقب ذلك بعد أن تحددت بالحالة التي سبقتها، وهكذا إلى أجل غير معلوم في دورة سببية أزلية تدعى بالسنسكريتية «سمسارا» وهي العالم الذي تتناسخ فيه أرواح الكائنات الحية وأرواح الآلهة.

نحن الفانين ليس سوى رأس دائرة عملاقة مستمرة في الطحن... دعنا نقول... تحت الماء، من خلال عمليات لا تتوقف.. جيدة أو سيئه..

الأشياء التي تطفو إلى السطح سواء كانت ملطخة بالطين أو مغسولة ونظيفة بفعل الماء الرائق إنما هي تجسيد لما مرت به العجلة دون إدراك. المجئ المفاجئ للميلاد أو الموت يدهشنا لأننا لانرى إلا قوسا مكسورا، قطعة صغيرة، ولكننا لانرى المحيط الكامل لتلك العجلة الهائلة التي تجسد حياتنا قبل الميلاد، تناسخ أرواحنا الماضى، وذلك هو الذي يقرر نمط ومدى وجودنا، ولكن المأساة أن الإنسان الذي لايعى شيئاً عن وجوده السابق يتخبط في حياته الآتية غير مكترث بأي من معايير السلوك الأخلاقي».

ثم ساد صمت غير طويل، كان وجهه يتوهج أثناءه في رهبة تحت عمامته القرمزية الكبيرة المنشاة والشعرات الرمادية التي تلمع في لحيته الكثة. وبالرغم من أن «بقشيش» كان عادة ما يربكنى بمزجه الغريب بين الدين والعلم، إلا إن عملية إحراق جسد «راما سوامى» يبدو أنها قد ألقت به في لجة من التفكير العميق.

قلت: «أنت تعرف يا «بقشيش» أن رجلا مثلك سوف يولد مرة أخرى في هيئة إنسان، ولعائلة نبيلة كذلك».

قال وهو يخفض عينيه خجلا: «لست متأكدا...»

ولكن بالنسبة لـ«توني» فأنا متأكد تماما أنه سيولد مرة أخرى في هيئه «برهمى»*.. كان يقول ذلك وهو يرفع عينيه كما لو أن مجرد التفكير في حيوانه المدلل قد سما به... على مدى الثمانية عشر عاما التي عرفته فيها كنا نشترك في حب شيئين: الكلاب والموسيقى. بعد موت «قيصر» كنت قد قررت أن أحتفظ بكلب واحد: «بيتر». ولكن «بقشيش» لم يحتفظ أبدا بأقل من دستة أو مايقرب من ذلك، سواء كانت من الكلاب الأصيلة أو الهجين. كان يمكن أن يلتقط كلبا ضالا من أي مكان ويجئ به إلى زوجته ويطلب منها أن تطعمه وتسقيه. وهكذا لم يكن «توني» بلا ضيوف أو أصدقاء يجوسون في فناء المنزل الخلفي. ثم استأنف «بقشيش» كلامه:

«تعرف، عندما كنت أراقب عملية إحراق الجسد فكرت في أن أنظم من أجل «توني» نفس مراسم الوداع... الكافور والزبدة والتراتيل... ثم أذهب لغمر رماده في نهر الجانج المقدس. «توني» يستحق ذلك بالفعل لأن روحه سوف تصعد إلى «سفارجا» مباشرة. التزام الكلب خالد ودائم، فهو يسلم إرادته لمشيئة سيده، لا نفاق عنده ولا جشع!»

* واحد من طبقة الكهان المقدسة في نظام الطبقات الهندوسى (المترجم).

قلت: «فلأعترف إذن بأنني أذنبت، فقد كنت فظا مع «پيتر» هذا الصباح».

قال: «هي قسوة عقلية، هذا مالابد أن يشكو منه، ولكن تلك المخلوقات لا تتخلى عنك أبدا، إنها تبقى معك حتى يفرق بينكما الموت»... ثم أضاف بعد لحظة «ولكن لماذا كنت فظا معه؟»

– «حالة من حالاتي على ما أظن. لم أكن لأسمح له بالتدخل في شكى بالنسبة لـ«مارى»، رغم أنني قد أشركته قبل ذلك في كثير من الأمور الخاصة. هناك أشياء لابد من حجبها عن أقرب الأصدقاء. معارك لابد أن تخاض في المناطق الصامتة من الروح».

وحيث كان آخر المشيعين قد رحل، وأصبح طريق الموت هادئا، أدار «بقشيش» محرك السيارة وعندما أوصلني إلى مكان سيارتي قال: «لماذا لاتأت لتناول العشاء معي؟»

قلت وأنا أبتسم – «للأسف لدى أشياء أخرى لابد من إنجازها هذا المساء»

– «ريزيا؟»

– «نعم..»

– «بعد كل ذلك؟ هذا شيء محير!»

– «قد أكون في حاجة إليها كترياق لهذا اليوم المروع»

– «أتمنى أن يفيدك..!»

- ٣ -

إذا كنت أريد أن أقضي المساء مع «ريزيا»، فإن ذلك في الحقيقة كان بقصد التخفف من همومي... ولاشيء أكثر. كل شيء مرتبك منذ مساء الأمس، لذا اتصلت هاتفيا بعد غداء سريع في «نادي النظام» بـ«چوس» ساعي الاستوديو الخاص وطلبت منه أن يبلغ «كث كيشورى لال» بضرورة حضوره جلسة الغد للانتهاء من رسم البورتريه الخاص به، «البورتريه انتهى تقريبا، لذا فإن تأخير يوم واحد لايهم». بعد ذلك قررت أن أذهب إلى مكتبي في الأكاديمية لمراجعة بعض الأوراق، ومن هناك يمكن أن أذهب مباشرة إلى «ريزيا».

عندما وصلت إلى منطقة «قصر جولشان»، فوجئت بوجود عدد من رجال الشرطة يجوسون حول المساحة المزروعة بالحشائش. اثنان منهم يتهامسان بالقرب من النافورة الرئيسية، ولكني واصلت قيادة سيارتي حتى مقر «ريزيا» في آخر القصر.

قالت وهي تطل من النافذة: «يالها من مفاجأة!». صعدت السلم حتى قاعة الانتظار.

قالت: أ«فتقدتك اليوم كثيرا»

- «صحيح؟»

- «كنت في مسيس الحاجة إليك»

- «وأنا أيضا... ولكن ماذا تفعل الشرطة هنا؟»

بدت علامات الجد على وجهها وقالت: «سأخبرك بكل شيء، ولكن ماذا تريد بداية أن تشرب؟ ويسكي؟ چن؟ شمبانيا؟» وبعد لحظات سألتها مرة أخرى. ماهي حكاية الشرطة؟»

قالت وهي تزيح خصلة شعر من على أذنها اليسرى:

- «الشرطة هنا بسبب ما فعله أخي... لقد اغتصب ابنة أحد عمال الحديقة ليلة أمس، فتاة قاصر.. مسكينة.. نزفت وكادت أن تموت... شيء مرعب.. أليس كذلك؟!»

قلت وأنا انكمش في مقعدي: «شيء فظيع بالتأكيد، ولكن من الذي استدعي الشرطة؟»

- «الخدم... ولأن «بابار» هرب، فإنهم يوجهون الاتهام إلى أبي... إنه يستحق ذلك..»

- «ياإلهي! هذه كارثة!»

كانت «ريزيا» قد أخبرتني قبل ذلك أكثر من مرة أنها تكره والدها. تكرهه لأنه داهمها ذات مرة في غرفة نومها وحاول أن يغتصبها.. تكرهه لأنه هو الذي أوصل أمها إلى الموت.. والحقيقة أن «نواب سليمان على» الذي يرجع أصله إلى الحكام المغول كان نموذجا للدرك الأسفل من التفسخ الإقطاعي. ورغم أن جد «ريزيا» كان رئيسا للوزراء، وكان يمتلك عددا لا بأس به من العقارات في المدينة وضواحيها، إلا إن والدها وجد نفسه بعد ضم الولاية بواسطة الحكومة الهندية يعيش على الممتلكات التي آلت إليه بالوراثة، وفي كل عام كان يبيع منزلا أو عزبة لكي يحتفظ بحاشية وبكتيبة من الطباخين والسائقين وعمال الحدائق والحراس.

ورغم ارتفاع ضغط الدم والقرحة، ظل مدمنا لأنواع الويسكى الفاخر المستورد والأطعمة الحريفة وصلصة التوابل وأوراق «الباناراسى»* التي يحشوها بالتبغ التركي ويظل يمضغها بلا توقف. وإذا كان يبدأ صباحه «بالبورجندي» فإنه يواصل طوال اليوم مع «الچوني ووكر» و«البلاك دوج» حتى الغروب. بعد ذلك ربما كانت هناك مباراة طويلة في الشطرنج مع «سمرخان» أو «شودرى بركات على» وكلاهما من أصدقاء الطفولة. أما في عطلات نهاية الأسبوع فإن سكرتيره الخاص يقوم بترتيب برنامج لتسلية سيده: صراع ديكة، قتال حتى الموت بين نمس وكوبرا... وأحيانا مجرد عرض للقردة. «نواب سليمان على» في أواخر العقد الخامس من العمر، ولكنه لم يبرح فترة المراهقة بعد. أما نقطة ضعفه الكبرى فهى بنات الرقص المحترفات، فهو يعتقد أن لا متعة في النوم مع امرأة إلا إذا كانت تستطيع القيام بعملين آخرين... أن «تتلوى أو تغني» على حد تعبيره.. وحيث أن الدعارة كانت قد منعت رسميا، كان على سكرتيره الخاص أن يبحث عن الفقيرات الجميلات اللائي يمكن أن يدعوهن «كمغنيات أو راقصات» لتقديم عروضهن في «قصر جولشان».. بعد ذلك تستبقى إحداهن طوال الليلة كمقدمة لمسرحية الصباح. أما أشد ما كان يؤلم «ريزيا» على نحو خاص، فهو تذكرها لقسوة أبيها البالغة تجاه أمها.

كانت «البيچوم سلطانة» تشاهد زوجها كل مساء مع عشيقة جديدة، وكان «نواب سليمان» يتباهى أمامها بخياناته.. وبكل تبجح..... إلى أن قضت عليها ذات ليلة جرعة زائدة من الحبوب المنومة. وبالطبع، كان طبيب «نواب» الخاص يعلن في الصباح التالي أن سبب الوفاة «تسمم بالطعام» فأقيمت مراسم الدفن في مقابر الأسرة حيث يوجد الآن شاهد رخامى يحمل أبياتا من الشعر الفارسي هي رثاء «نواب» «لزوجته المحبوبة البيچوم سلطانة»:

---

* أوراق نبات متسلق يسمى التامول أو التنبول ينمو في مدينة بارناس الهندية وهي تلف مجففة وشديدة الحرارة مثل الشطة (المترجم).

أيضاً «إلى أن أغمض عيني أنا أيضا..

ويجف الدم في عروقي،

تبقين أنت نجمي القطبي المضئ،

ترشدين خطواتي

وتبددين كل الأحزان»

زوجك الحزين أبدا.....

خان بهادور نواب سليمان علي.....

كان ذلك كله يدور بعقلي وأنا أحدق في وجه «ريزيا» الذي كان يتنقل بين الحيرة والاشمئزاز. استأنفت حديثها بصوت ساخر:

- «سيتمكن من إخماد كل شيء، يبيع منزلا آخر، ربما يكون المنزل الأخضر في «حيدر جودا» لكي يعوض عامل الحديقة عن اغتصاب ابنته ووفاتها، والشرطة على تعاونها» ثم لوت قسمات وجهها في ضحكة ساخرة. «وهكذا ترى كم كنت محتاجة إليك هذا المساء حتى لا أفقد صوابي في مستشفي المجانين هذا» وبعد لحظة صمت قالت: «أليس هذا نوعا من الأورجازم الذهني، عندما يرغب حبيبان كل منهما الآخر في نفس اللحظة؟» ولمعت عيناها في الظلام مثل عينا حيوان.

سألتها بهدوء: «وأين جثة الفتاة الآن؟»

- «في جناح الخدم، ولكن بمجرد أن يغطى والدي كل شيء فسوف يكون الخبر أن سبب الوفاة «نزيف» أو أي شيء من هذا القبيل... وربما سكب بعض الدموع أثناء الجنازة!»

- «شيء مثير.!»، قلت ذلك وأنا أستعيد كيف إنني منذ الصباح واقع في عنكبوت حالتي وفاة...

- «ولكنك لم تسأليني ماذا كنت أفعل!»

-«ماذا؟»

- «أنا قادم لتوى من جنازة..»

- «جنازة من؟»

- «راما سوامى»

- «الزعيم العمالى ؟»

- «نعم!»

- «أعتقد أن «بابار» كان يعرف الرجل، وحدث مرة أن كان بينه وبين أبي خلاف صغير بخصوص بعض العمال في عزبة لنا.. كان رجلا ذكيا... أليس كذلك؟»

- «نعم... وانتبهي... أعرف أنني كان لابد أن أعود إلى المنزل للاغتسال وتغيير ملابسي بعد عملية إحراق الجسد، وكما تعرفين فإن المشيع الهندوسى يفترض أنه غير طاهر حتى....»

- «حتى يستحم.... لا توجد هناك مشكلة ياعزيزي يمكن أن أعد لك كل شيء الآن وهنا... الدش في حمامى وقميص وسروال من ملابس «بابار»... وبعد ذلك يمكن أن تأتي إلى الفراش! ألا يبدو ذلك الوسيلة الوحيدة للاستمرار في هذه الحياة؟!».

فاجأتني رباطة جأشها. كيف يمكن أن تفكر في ممارسة الجنس بينما أشباح الاغتصاب والموت تحوم فوق رؤوسنا؟! وقبل أن أرد عليها اندفعت خارجة لكي تحضر لي ملابس «بابار».

جالسا في مقعدى مشدوها، كنت أحدق في كل ماحولى ولا أرى شيئاً، وفجأة وقعت عيناي على لوحة «الراقصة» من أعمال «ديجا» وفوق اللوحة رأيت سحلية صفراء مرقشة تزحف قاصدة حشرة صغيرة غافلة. كان بطن السحلية الذي يشبه قشرة البصلة يتمدد إلى الأمام على مخالبها العنكبوتية وأنيابها تتحرك مثل أنياب الكوبرا... ثم انقضاض مفاجيء مميت لتختفي الحشرة داخل فم السحلية! وهكذا زالت من الوجود نقطة كانت تتحرك على الحائط..

عادت «ريزيا» حاملة كيسا به بعض الملابس، ثم قالت وهي تشير ناحية الحمام... «الدش ينتظرك هناك... وأنا هنا... تعال بسرعة... نظيفا... وطازجا...» ومن داخل الحمام سمعتها تصدر أوامرها لخادمتها:

- «ممتاز»... ليس مسموحا لأحد بالدخول هذا المساء... مفهوم؟». عندما خرجت من الحمام كانت «ريزيا» متجردة من ثيابها تماما، جذبتني إلى السرير الواسع... بجواره طاولة صغيرة عليها زجاجة شمپانيا كبيرة وكأسان. ياإلهى! ستلتهمني كما فعلت السحلية!

شعرت لأول وهلة بأنني أُدفع دفعاً لممارسة الجنس، وبينما أنا واقع في الفخ لاحول لي ولا قوة أرقد بجوارها منكمشا فاقدا الحس.. قالت وأصابعها تمرح على جسدي كله:

- «حبيبي... مالك بارد كالجثة ؟»

- «أنا ؟»

- «تأثير الجنازة.... مايزال..؟»

- «والاغتصاب أيضا!»

- «لماذا لاتطرد كل ذلك عن ذهنك؟»

- «ليتني أستطيع.. لماذا لاننام هكذا معا دون جنس؟»

- «ليتني أستطيع..! ولكن أيكون ذلك أمرا طبيعيا؟»

كانت تضمني وتضع رأسي بين نهديها...

قلت- «وماهو الطبيعي؟»

راقد أنا معصوب العينين تقريبا. عيناي وأنفي وفمي غارقة في دفء ونعمة وادى النهدين... راقد أنا في سكون... فكرت... لماذا لا يكتفي المرء بالنوم هكذا بدل أن يمزق كل منا جسد الآخر خمشا وعضا وهو يصرخ ويتأوه؟

فجأة، قامت «ريزيا» وألقت برأسها على وسادتها..

- «ما رأيك بقليل من الشمپانيا؟»

- «لا بأس...»، قلتها همهمة وأنا أحاول الخروج من حصار أفكارى..

بعد جرعة عميقة، وجدتني متلبسا بمراقبة جسدها.. خطوطه وكفافه وثناياه واستداراته، مده وجزره... وهاهي ابتسامة رقيقة ترفرف على شفتيها... «ريزيا» تعرف أنني أشرب في صحة جسدها، ذلك المستلقى إلى جوارى مثل كثيب شكلته رياح الصحراء المتمردة فاستحال جذع تمثال لامرأة أرى حلمتى ثدييها ولون القهوة حولهما... حلمتان تحدقان فيّ من فوق صدرها العامر كأنهما عينا إله!

تخيلت جسدها معلقا في الهواء بخيوط من حرير لاتراها العين، ولأنني كنت دائما أمنى نفسي بأن أرسمها عارية رحت أتخيل صورة ذهنية لجسدها!

- «تبدو غريبا جدا!»

- «أنا؟»

فجأة اقتحمت أسماعنا ضجة من الخارج: «نريد العدالة، لابد أن ننتقم»، ثم تبع ذلك صراخ وعويل. نهضت «ريزيا» من الفراش شاحبة خائفة وهي تقول بصوت مبحوح: «لابد أنهم الخدم، يبدو أننا مقبلون على بعض المتاعب». أما بالنسبة لي فكانت تلك الضجة نجدة إلهية. شعرت أنني هربت هذا المساء بمعجزة من أن تغتصبني أخت «بابار»، إلى جانب أنني لم أكن

أريد أن أزج بنفسي في مشكلتها.

– «أعتقد أنني لابد أن أنصرف، وآسف على عدم....»

عندما عدت إلى المنزل متأخرا في ذلك المساء، شعرت بالراحة لأنه كان مظلما وهادئا. فتحت البوابة الخارجية وتسللت إلى الشرفة الأمامية ومنها إلى غرفة المعيشة لأنام ليلة أخرى على الأريكة. جرى «بيتر» نحوى ونبح نباحا معتدلا.. مرحباً بي.. حملته وداعبته تحت رقبته لعلني أكفر عن قسوتي عليه ساعة الإفطار. قلت بيني وبين نفسي، «أنظر يابقشيش، لقد عدنا أصدقاء، لقد عفا عني.». ولكن نباحه أيقظ «رامو» من نومه فظهر أمامي وعيناه ثقيلتان بالنوم:

– «معذرة ياسيدي، غلبني النعاس، هل تريد بعض القهوة؟»

– «لا.. شكرا..»

ثم أشرت إليه بالخروج من الغرفة. وأثناء استلقائي على الأريكة لمحت عيني مرة أخرى تلك البقعة الرطبة الموجودة بالسقف، كانت حرارة الجو قد جففتها بعض الشيء فأخذت شكلا جديدا أكثر غرائبية من ذلك الذي كنت قد رأيته في الصباح.

الحيوان الزاحف ذو الشدقين الواسعين مُسِخَ فأصبح هامة يقطر الدم من فمها. قفزت وأضأت كل أنوار الغرفة التي كانت غارقة الآن في وهج الثريا المعلقة ولمبة الفلورسنت في حوض السمك.

كانت الغرفة ساكنة إلا من دقات ساعة الحائط وصوت ارتطام الستائر بزجاج النافذة. ومن الناحية الأخرى من الممر كان صرير الثلاجة يأتي مثل أزيز خنفساء متواصل، أما خارج المنزل فكان حذاء الحارس بما في نعله من مسامير يدق الأرض دقا...

لم أكن قد أدركت قبل ذلك أن لليل أصواته الخاصة. أشعر أنني أقع بالتدريج تحت تأثير مس شيطاني لابد أن أطرده على نحو ما كي أخرج منه، ولأن من عادتي أن أقرأ شيئا مبهما في الليل لكي أنام، تحركت إلى رف الكتب وتناولت كتاب «سوار جاناندا»: «الحياة بعد الموت»، ولكن بعد أن قلبت بعض صفحاته كانت النتيجة أنه ضاعف حزني وشعوري بالاكتئاب. وضعت الكتاب على الطاولة الصغيرة المجاورة وتناولت مجموعة لشاعر يكتب بلغة الـ«تيلجو»* متصورا أنه سوف يهدئ من روحي المضطربة. وبينما أنا أقلب صفحات ذلك الكتاب ذو الغلاف الأحمر، وقعت عيني على قصيدة بعنوان «محرقة أديكمت – حيدر أباد!»
ياإلهي!

* من أشهر اللغات التي يتحدث بها عدد كبير من سكان شبه القارة الهندية (المترجم).

لابد أن روحا شريرة ترفرف فوقي في هذا المكان، وقبل أن أترك الكتاب من يدى وجدتني أقرأ السطور الأولى من القصيدة:

«ضجيج شحاذين لاينتهي،

ترانيم

جمجمة تنهض من فتحة مصرف

هامة جاثمة على الحائط

تفكر في جشع الإنسان

لحم يقدم للنار

والعظام والرماد للجائع

وفي داخل الفناء

ست منصات عارية من الطين البني

استحالت إلى لون الرماد

تحت النار المشتعلة منذ قرون

تتغذى على القرفة والكافور والزبدة

هنا تستعوض الأرض نفسها

تمحو اسما

لترحب بقادم جديد

الآن، يشعل ابن ركام والده

ويتحول العالم إلى حريق

ويرفع الكاهن صوته بالترانيم

من أجل مكافأة أكبر..»

ثم بدأت أغوص في نوم عميق، مظلم مثل كهف، بئر بلا قرار... نفق ليس له نهاية..

- ٤ -

جلست فوق تل صغير أرسم تخطيطا أوليا لمنظر الفيضان. أمامي يصطخب نهر موسى ويتمور مثل حوت هائل يتقلب على جنبيه فيحدث في الماء جيشانا عنيفا. موجة عاتية من المد تنطلق عبر الشاطئ تنذر باجتياح أي شيء يقع داخل قوسها، ولكن عددا من الأطفال الذين كانوا يلعبون على الشاطئ لايشعرون بأي خوف... كل مايفعلونه هو أنهم يفرون نحو سفح التل كلما هددتهم الأمواج بالاقتراب.

فجأة، جثم ظل فوق دفتر الرسم الذي أمسك به، ثم امتدت يد ضخمة. وقبل أن أتمكن من الاستدارة دفعتني بعنف فتهاويت إلى أسفل، وبدأت أتدحرج نحو الماء مثل كرة البلياردو. أحاول أن أثبت قدمى في الرمال والصخور لأوقف انزلاقي دون جدوى، وأثناء ذلك رأيت شرطيا يقوم بحراسة ممر جانبي، حاولت الصراخ طلبا للنجدة ولكنني لا أجد صوتي، وقبل أن تبتلعني الموجة رأيت رجلا يلوح بيده من فوق قمة التل «أتمنى لك وقتا سعيدا هناك ياسيد «كريشنا»... إلى اللقــ..ا.. ..ا ...ء!!» تعرفت على ذلك الصوت في الحال، إنه صوت «كينيث چورچ». كانت المياه المضطربة قد غلبتني وقدرتي على المقاومة انهارت، حاولت السباحة فخذلتني ذراعاي، فوق عيني غشاوة كثيفة... وأنا أغرق... أغرق... ويشدني تيار تحتي نحو الأعماق.. كنت ملاكما مهزوما يترنح على حبال الحلبة! ومن حشرجة في حلقي عرفت أنني أموت، ومن قلبي تصاعدت زفرة أخيرة إلى حلقى محدثة صوتا كالصفير ضائعا بين فقاعات الماء. متحررا من جسدي بدأت في الانجراف خفيفا تحت الماء، ضعيفا كالريشة... وعلى البعد مني كان جسدي يبدو واضحا... منفصلا عنى... ولاسيطرة لي عليه!

هبط عليَّ إدراك غريب، أشعر أن جسدي لم يعد له علاقة بي... وبأنني بعيد .. بعيد عنه تماما. متحررا من وجودي المادى أصبحت مجرد شعور... ولا أكثر من شعور.!

في هذه اللحظة، قدمت نحوى مسرعة كتلة سوداء من الماء اللزج، انتفخت وانفجرت وتحولت إلى دوامة برز منها وجه خرافي مرعب يشبه تمثال إله الموت الذي شاهدته على البوابة الرئيسية لمحرقة «جيرد هارى لال».

ابتسم الوجه ساخرا: «أتمنى أن تكون تعرفني!»

قلت بصعوبة: الإله «ياما»

فوجئت بأن صوتي الذي كان محبوسا منذ دقائق قليلة يخرج مني الآن واضحا وجهيرا، كما أدركت أن الموت رغم أنه قتل كل حواسى الأخرى إلا إنني كنت أسمع وأرى.

قال الصوت الخشن: «نعم أنا، وواثق كذلك من أنك تعرف ماذا ينتظرك».

- «أنا أعرف فقط أنني خائف...»

- «حسن ! ستمر الآن بتجربة، هي سكرة العودة إلى أهلك وأصدقائك وغيرهم، ستظل ترفرف في الأثير لمدة ثلاثة عشر يوما، سترى البشر والحيوانات وتسمعهم، ستسمع حتى مايدور بعقولهم من أفكار، ولكنك لن تسمع أفكار الأرواح الأخرى رغم إمكانك التحدث إليها، وذلك لأن لكل روح سريتها وخصوصيتها التي تنفرد بها.

ستلاحظ أنه باستثناء والديك وكلبك واثنين من أصدقائك لا أحد من البشر يفتقدك، لذا يجب أن تستعد لمواجهة صدمة معرفة الذات، إنها أشد عذابا وأكثر هولا من موتك، والحقيقة أن هناك أكثر من موتة في انتظارك... إنه عالم غريب ذلك الذي دلفت إليه».

قلت: «لا أستطيع أن أتخيل ذلك، ويبدو أنك أكثر طيبة من أهلي».. قاطعني قائلاً: «أنا لا أحب التملق، ولو تركتكم بني البشر تتملقوني هكذا فلن أستطيع أن أقوم بعملي».

ورغم رده الفظ، شعرت بأنه لم يكن شديد القسوة معي، ولكني مع تزايد فضولي فكرت أن أسأله عن الحياة بعد الموت.. «أعرف أن لابد أن أكون مستعدا لتحمل كل ذلك العذاب أو كما قلت، عن حق، صدمة معرفة الذات، ولكن ألا يوجد أي افتداء لشخصى مثلى؟ أتصور أن في مثل حالتي لابد أن يكون هناك تبريرا كافيا لبعض زلاتي على الأقل.»

رد بحدة: «أي تبرير؟! يبدو أنك ضحية لتضليل الذات!»

واضح أنني قد زدت من ثورته بدل أن أهدئه.. «أقصد أنني أعرف أن كان لي علاقات نسائية، ولكن أنت تعرف أنه كان لابد لي من دراسة أجسادهن من أجل أعمالى الفنية، كيف كان يمكن أن أرسم صوري العارية لولا ذلك؟ كانت تلك الدراسة وسيلتي للتعبير عن الامتنان والإجلال والتسبيح بحمد الخالق المصور الأعظم!.

لقد كنت أريد أن يفهم الجميع أن أى فنان من البشر لايستطيع أن يحاكي قدرته جل شأنه على اللون والإيقاع. وتصوير الأجساد العارية بالنسبة لي كان بمثابة العبادة.. فالرسام، مثل الكاتب، عليه أن يغوص في الخطيئة من وقت لآخر لكي يبصر الفضيلة من منظورها الحقيقي... بالضبط كما يستدل على الاتجاه بفقدان الاتجاه..»

وهنا ضحك وهو يقول: «تردد كلمات «شيكسبير»؟! يالخبث العقل البشري! إنه يلوى كل شيء ويطوع كل شيء لكي يخدم أغراضه».

وبرغم تقريعه لي، إلا إنني كنت سعيدا. حتى «ياما» كان يعرف «شيكسبير» جيدا وشجعني ذلك على مواصلة الحوار..

فقلت: «معذرة!، لقد خانني التعبير، لم تكن الكلمات أبدا هي لعبتي كما تعرف، فأنا مصور»، ثم واصلت بعد صمت قصير «كل ما أردت أن أقوله هو: أليس حب المرأة... أليس الاتصال الجنسي مبارك في كل الكتب المقدسة؟»

– «أي كتاب تقصد؟»

ورغم أن صوته كان غاضبا إلا أنه بدا مهتما. كنت سعيدا لأنه يتحرك معي في اتجاه جدل لاهوتي.

– «سوف تردد ما قاله «**سيڤيتاكيتو**» لـ«**جاوتام**»[1] في «**يريها دارانياكا**»[2] عن ممارسة الجنس!

البقعة السوداء ساكنة تماما... وكأنها قد تجمدت في حالة ترقب..

– «هل كنت فيلسوفا أم رساما؟»

– «ربما الإثنان معا....»

وسرعان ما شعرت بأنني لاينبغي أن أكون هازلا إلى هذا الحد، إلا إنني أصبحت غير مدرك للموقف الخطير الذي كنت فيه.. ثم واصلت الكلام... «في هذا الكتاب يعرف «جاوتام» أن المرأة أيضا نوع من المطهر وأنه من خلال الاتصال الجنسي قد يكسب الإنسان نفس الثواب الذي يمكن أن يناله من طقس النار... فشعر المرأة هو الدخان، وفرجها اللهب ومشاعر اللذة هي الشرر...»

سمعته يقهقه ويقول: «قف! بالضبط مثل الشيطان عندما يعظ، ولكنك أسأت تماما فهم تلك النصوص. الجنس هنا مبرر فقط لأنه وسيلة للتناسل وليس كهدف في حد ذاته. هل تعتقد أن الإله الأعلى يمكن أن يقبل الجنس غير الشرعي الذي كنت تمارسه مع...»

---

(١) جوتاما سدهارتا بوذا (بوذا تعني المستنير أو المستيقظ وهو أحد ألقابه)– المترجم

(٢) نصوص الغابة وهي خاصة بالنسك لكنها يمكن أن تهدى لكبار السن الذين تركوا أهليهم ليقيموا في الكهوف والغابات وهي تهديهم لأعمال سهلة يقومون بها بدلا من القرابين التي أصبحوا يعجزون عن تقديمها. (المترجم).

- «ريزيا؟»

رد بسرعة - «نعم! أنا سعيد لأنك ترى ذلك بوضوح ومباشرة.»

قلت - «ولكنك سوف تتذكر لو تفضلت بأنني في آخر مرة كنت معها في الفراش ولم أفعل سوى رسم صورة ذهنية لجسدها. هذا كل ما حدث. ألم يكن ذلك ضربا من التأمل والتفكر؟»

- صورة ذهنية! تحاول أن تخدعني! لقد كان الجنس بالنسبة لك انغماسا في الشهوة، وليس وسيلة للتناسل، فأنت لم تخرج من صلبك حياة.»

- «ربما كانت «مارى» هى السبب..!»

- «ومن يعرف؟»

- «نعم أنا متأكد، فقد بذلت كل مافي وسعى.»

- «وهل هذا يكفي؟»

كان في صوته رنة سحر..

قلت - «أنا أعرف فعلا، «مارى» كانت عاقرا، وكذلك من ناحية الأمانة الزوجية.»

قال - «انظر.. من الذي يحتج.. أنت تتكلم كما لو كنت عليما بكل شيء. سوف ترى بنفسك من المسؤول عن ذلك...»

وبعد صمت قصير قال:

- «لا أعرف لماذا تركتك تثرثر! أنا عادة لا أبقى مع أي روح لمثل هذا الوقت الطويل، هناك كما تعرف مئات الألوف يجيئون طوال الوقت من كل اتجاه وأنا وقتي محدود».

- «الحقيقة أنك كنت رحيما بي، ربما لأنك تتعاطف مع فنان.»

- «مرة أخرى تعود إلى المداهنه!»

- «لا.. لقد تأثرت فعلا بعطفك، أتمنى فقط لو كنت قد أمهلتني أسبوعا.. كان يمكن أن أنتهى من رسم لوحتين لمنظر السيول وصورة شخصية...»

- «بورتريه كيشورى لال؟»

- «أنت تعرف كل شيء إذن!»

قفزت سمكة ضخمة بيننا في الماء ثم انسلت برشاقة بجوار جسدي، فزعت لرؤية ثعبان من ثعابين الماء يتبعها.

سألني «ياما»: «خائف؟!» كان قد سمع خوفي!

«لا تخف، لن يعض جسدك، أولا ثعابين البحر ليست مؤذية ثم إنها لاتلمس الأجساد الميتة.. ولكن لماذا أنت قلق الآن على شيء لم يعد ملكالك؟»

– «ما زال.. إنه كان ملكي...»

– «هذه عواطف غبية، أنتم معشر البشر لا تتخلون عن شيئ، غيورون، محبون للتملك، متمركزون حول الذات.. هكذا أنتم دائما...»

– «حسن! سوف ترى حالا جسدك ملقى على الشاطئ، يمكن أن تستمر في البكاء والنحيب عليه كما شئت رغم أنك – وكما تعرف– ليس لك عيونا بشرية الآن... أتمنى أن يحضر أحد أقاربك الآن ويطلبها قبل أن تصل إليها النسور، ولا تنس أيضا أن النسور قد مرت بنفس التجربة، بعضها كان رؤساء وزارات ورؤساء دول وچنرالات في حياتهم السابقة.»

– «هذا أمر مرعب!»

– وأنا سعيد لأنك بدأت تدرك ما ينتظرك، لقد كنت زلق اللسان أكثر مما يجب..»

– «معذرة ياسيدي!»

– وحيث يبدو أنك تعرف «الأوپانيشاد»* جيدا دعني أشاركك فكرة من «كاوشيتاكي» حيث يخبر «جانجياني»، «جاوتام» كيف أن كل روح مفارقة تعود مرة أخرى إلى الأرض على هيئة دودة أو عتة، أو سمكة أو طائر أو أسد أو خنزير برى أو حية... الخ. وربما على هيئة إنسان.... وذلك حسب أعمالها السابقة. ولهذا القرار يجب أن تنتظر كلمة الإله الأعلى، ولكن ذلك ليس عملى، فعملي هو أن أضع نهاية لكل حياة، أن أطفئ النور.... كما حدث!»

وبعد فترة صمت قال: «كما إنني أختار القاتل أيضا، قد يكون: سكتة قلبية، لدغة ثعبان، سرطان... أي شيئ.. وأختار اللحظة.... هل تذكر كيف قبضت روح «المهاتما غاندى» حتى

---

* كلمة سنسكريتية تتألف من مقطعين Upa بمعنى قريب و ni - shad بمعنى يجلس والمراد الجلوس بالقرب من المعلم، وهي محاورات تأملية ميتافيزيقية (عددها ١٠٨) وهي ختام الأسفار التقليدية المقدسة المعروفة بالڤيدا. ويتألف كتاب الأوپانيشاد من أحد عشر سفرا (يطلق على كل منها اسم أوپانيشاد» بصياغة حكماء متفرقين وينتظمها سياق فكرى واحد وجميعها تأملات في النفس الكونية «براهمان» والنفس الإنسانية «آتمان» (المترجم).

قبل أن يبدأ تجمعه للصلاة في دلهى؟ ولكن ذلك كان شيئاً آخر. أردنا أن تكون معنا كإحدى الأرواح المباركة، وقبضت روح «كينيدي» وهو في السيارة المكشوفة في شوارع «دالاس»، و«اللورد مونتباتن» وهو في اليخت بالقرب من الشاطئ الأيرلندي...»

- «إذن أنت اخترت «كينيث چورچ» ليكون قاتلى.؟ قال «ياما» - استنتج كما يحلو لك، وبالمصادفة فإن العمل الذي كنت تمارسه يثير اهتمامى، ليست صورك الذهنية، ولكن منظر السيول... تصوير الموتى، سيكون ذلك جميلا بلاشك... ولكن لماذا أبقى طويلا هكذا مع إحدى الأرواح؟»

- «هل يمكن أن أعتبر ذلك إعجابا بفني؟»

- «ها أنت مرة أخرى يصيبك الغرور، فتعطى نفسك أهمية كبيرة! تلك كانت ملاحظة عابرة، على أية حال لابد أن أمضي ، فأنا لا أستطيع أن أترك شيئا لأعواني...»

وفي الحال هجمت موجة على بقعة الزيت فبددتها.. عندما نظرت حولى وجدت جسدي يرتفع في الماء، وبعد أن طفا على السطح ألقت به موجة قوية على الشاطئ. رحت أتبعه كأنني ضباب، زفير، فراشة تحوم حوله.

كنت أسمع كل الأصوات على شاطئ النهر، رفرفة أجنحة النسور على أشجار جوز الهند القريبة، الأطفال وهم يلعبون، وقع حذاء الجندى على الأرض الصلبة. وفوق التل، كان طيف قاتلى «كينيث چورچ» يلوح خلف صخرة كبيرة، الوجه يشيع فيه الدم والعينان مثبتتان على جسدي، وعندما حومت نحوه كانت دهشتي بالغة لأنني كنت أسمع مايدور بفكره، كما تنقل سماعة الطبيب دقات القلب.

سمعته يفكر: «ياإلهى! لقد أخذ وقتا طويلا لكي يخرج من الماء ولكنه الآن ملقى على الرمل مثل الخشب الطافي على الماء... انظري يا «مارى».. كانت أفكاره تنساب «... لقد فعلتها وكما كنت تودين، والآن نحن أحرار بعد أن اختفى ذلك الرجل الغريب»

وبعد دقائق قليلة رأيته يقفز من فوق الصخرة مندفعا نحو جسدي الملقى على صدره ورأسه مدفونة في الرمال والساقان متباعدتان. وقف إلى جوار الجسد، وبعد دقائق قليلة نادى الشرطى...

- «توجد هنا جثة لفظها الماء»، التفت الشرطي ذو العمامة الحمراء وتقدم نحو الجسد وهو ينظر إليه دون إحساس ثم قال: «وماذا في ذلك؟ نرى جثثا كل يوم، وتلك مجرد ضحية أخرى من ضحايا الفيضان.»

قال چورچ: «هذا الرجل رأيته يسير بحذاء الشاطئ منذ دقائق..» ثم أضاف وهو يشير بيده

«... بينما كنت أقف هناك»

- «وهذا ماقلته أنا... مجرد ضحية أخرى من ضحايا الفيضان، فما الجديد في الأمر؟»

همهم «چورچ» قائلا: «أعتقد أنك محق». قالها وهو يشعر بالسعادة لأن الجريمة اعتبرت حدثا عاديا...

ولكن عين الشرطى ارتدت نحو جسدي، نظر بدقه إلى ملابسي وبنطالى القطيفة وقميصي الحريرى وصندلي الجلد والساعة الرقمية الإلكترونية في معصمي، ثم قلب جسدي بيده اليمنى.

رأيت وجهى، كان شاحبا ومبتلا ولكنه مايزال نضرا، الرمال عالقة بشعري مثل الحشائش الرطبة بالقرب من الممشى المفروش بالحصى. طار نسر من شجرة إلى صخرة قريبة وكأنه يمنى نفسه بجثة جديدة لوجبة مشبعة....

ياإلهى! هل أستطيع حتى أن أخترق ضمير الطائر الجارح وأسمع ما يفكر به..؟!

شعور غريب مروع يعتريني، لولا وجود هذين الرجلين هنا لانقض النسر ليمزق جسدي... أخذ الشرطى المحفظة من جيبي،. فتح غطاءها البلاستيكي وتناول بطاقة تحمل اسمى كانت مبتلة ومكرمشة، وكان «چورچ» يطل من خلف كتفه وهو يقرأها:

«رام كريشنا»

رئيس أكاديمية لاليت كالا للفنون

ايجلزنست

كريم جودا - حيدر أباد

في ركن من البطاقة توجد أرقام هواتف المكتب والمنزل وفي الركن الآخر عنوان الاستوديو الخاص بي.

قال الشرطي: «يبدو أنه كان شخصية مهمة، ولكن ماذا تراه كان يفعل هنا؟»

- «لا أعرف»

- «هل أطلب منك القيام بخدمة لي؟»

- «ماذا؟»

- «هل يمكن أن تتصل هاتفيا بأسرة هذا الرجل من أي مكان قريب؟ تعرف أنني هنا في

الخدمة ولا أستطيع ترك مكاني.. وهذه بطاقته على أية حال...»

رد عليه چورچ: «بالتأكيد»، ولكني سمعته يقول بينه وبين نفسه «هذا الشرطى يريدني أن أقوم بواجبه نيابة عنه، ولكن ذلك لصالحى تماما وهو أمر جيد»

عندما ذهب «چورچ» إلى كابينة الهاتف خلف برج الساعة القريب على شاطئ النهر، تحركت أنا أيضا... سمعته يهمس في سماعة الهاتف:

– «مرحبا ياعزيزتي، كل شيء قد تم وكما خططنا تماما... لا! كل شيء تمام هنا... أتحدث من كابينة عامة... نعم..! كنت محقة..! كان هنا يرسم اسكتشاته. الآن..؟ ألا يمكن أن تنتظري بعض الوقت؟ عندما أراك سأحكى لك كل شيء. لا.. لا.. ولا ذرة شك. كان هناك شرطي أخذ البطاقة من محفظته.... وهو الذي طلب أن أتصل بك!

حسن! اقترح أن تستقلى سيارة أجرة وتحضري إلى هنا على وجه السرعة. لا... الضفة اليسرى لنهر موسى بالقرب من برج الساعة... بالضبط... ألا تسمعين دقات الساعة؟ ياإلهى.. إنها تدق العاشرة. لابد أن مفاتيح السيارة في محفظته ولابد أن يكون قد تركها في مكان قريب من هنا... لا.. لابد أن يتم إحراق الجسد بسرعة. حسن! يمكن أن ينقل «رامو» الخبر لبعض الجيران. إعلان في راديو عموم الهند؟ نعم.. مات غرقا... لنقل ذلك، ولنضع الجثة في غرفة المعيشة وليس في الشرفة الأمامية... أرجو..و..و..ك.... نعم نعم نعم... أحبك!»

هذه الخيانة أحرقتني... كنت مثل حشرة صغيرة رفرفت بجناحيها نحو اللهب دائخة عمياء فتحولت إلى رماد في لمح البصر. لم أصدق أن قاتلى يمكن أن ينفذا مخططهما بمثل هذا الإتقان.. كان حزني بليغا، لأنني كنت أعتبر «مارى» دائما إنسانة بسيطة وجديرة بالثقة رغم ما كان يحدث بيننا أحيانا من شجار. وبمجرد أن طرت مرفرفا فوق رأس «چورچ» عائدا إلى الجسد، رأيت أن الشرطى كان قد فتح محفظتي ونقل منها إلى جيبه ست ورقات من فئة العشر روبيات وورقة بخمس، ثم فك ساعتي من معصمي وأخفاها في عمامته.

وعندما وصلت «مارى» بعد نصف ساعة تقريبا سلمها المحفظة الخالية ومفاتيح السيارة. كان «چورچ» يحاول أن يبدو مثل عابر سبيل يرقب مايحدث عرضا..

قال الشرطي: «نحن آسفون لهذه المأساة ياسيدتي، المتبع هو أن أكتب تقريرا عن الحادث لقيادتي... ومن الممكن أن يطلبوا تشريحا للجثة... وخلافه... ولكني سأسمح لك بنقلها... على أية حال هذه أيام غير عادية... فيضانات وموت... وكوارث!!»

قالت «مارى» «شكرا على اهتمامك ورعايتك!»

– «عفوا ياسيدتي!»

وهنا تدخل «چورچ» : «لاشك أنها صدمة عنيفة بالنسبة لك ياسيدة «كريشنا».

- «حزنى شديد فعلا، هل أنت الذي اتصل هاتفيا؟»

- «نعم، لم أفعل سوى الواجب ياسيدتي»

- «شكرا جزيلا...»

نظرت إلى كل منهما بسرعة. قالت: «سأذهب للبحث عن السيارة التي لابد ن تكون في مكان قريب من هنا وأحضرها إلى الضفة اليسرى للنهر. هل يمكن أن تساعدني في تحميل الجثة.؟»

وفجأة.. كانت تجرجر جسدي ولأدرك فجأة أيضا، أنها كانت تتعامل معه كما تتعامل مع جثة كلب... وبعد أن انصرفت كان الجندي يصيح نحو الأولاد الذين يلعبون على الشاطئ

- «هيا...أياديكم معنا!!»

جاء الأولاد مسرعين، نظروا إلى الجسد الملقى على الأرض بإهمال، لم يبد أي منهم تعاطفا، فقد كانوا معتادين على مشاهدة الجثث على الشاطئ..

في دقائق، كانت «مارى» قد جاءت بالسيارة، حملوا الجسد ووضعوه على المقعد الخلفي في سيارتي الأمپاسادور الخضراء، كانت الساقان محشورتان بالباب من الداخل...

سألها «چورچ» «هل ترغبين أن أجئ معك ياسيدتي؟»

- «سيكون ذلك كرما منك بكل تأكيد، فأنا ليس لي أحد هنا!»

وقال الشرطي: «لقد ساعدنا كثيرا بالفعل!»

السيارة تعبر الآن جسر «شادرجات» منعطفة عند فندق «أوبروى» إلى شارع ضيق، ثم تتجه مسرعة نحو كريم جودا. مرت دقائق وهما صامتان تماما... بعد ذلك رأيته يميل عليها، ويبحث بفمه عن شفتيها.

- «ليس هنا ياحبيبي»

- «ولم لا؟»

- «خطر»..... قالتها وهي تنظر إلى جسدي في مرآة الرؤية الخلفية.

- «نفس الإحساس بالخوف وكأنه مازال يراقبنا...» قال مازحا: «ليس هو... بل هي....

«خشب جاف في انتظار النار»

– «ليس بعد! أشعر بشيء يطن من حولى»

– «إنها أعصابك المضطربة ياسيدتي، قبلة واحدة يمكن أن تنسيك ذلك كله»، وجذبها «چورچ» إليه بقوة ليزرع قبلة على شفتيها الشاحبتين المرتجفتين. وعندما انزلقت يدها اليسرى من على عجلة القيادة انحرفت السيارة ليقع جسدي من على المقعد إلى أرضية السيارة ولكنها استطاعت أن تستعيد السيطرة على عجلة القيادة في الحال...

– «حبيبي.. أرجوك!. كدت أن أصطدم بعمود الإنارة!»

– «آسف ياحبيبتي..»

ثم فترة صمت أخرى.. السيارة تجري الآن فوق «جسر ريدى»، عينا «مارى» مثبتتان على جسدي كما أراهما في المرآة.. وفجأة سألته: «كيف فعلتها؟»

قال: «مرة أخرى تفكرين في الرجل الميت!»، ثم أضاف وهو يداعب كتفها: «لماذا لاتطرديه من عقلك؟»

– «ليتني أستطيع!»

– «حسن! دَفْعَةٌ بسيطة من فوق التل وسرعان ماهوى المصور العظيم في النهر مثل كتلة من الخشب.... ولكن... ياإلهي! كم كان يصارع الأمواج بقوة! وكيف ظل يغوص ويطفو عدة مرات في الماء قبل أن يستقر في الأعماق!!»

— ٥ —

ظل الجو حارا شديد الرطوبة. نتف قليلة من السحب الخفيفة كالزغب تغطى الشمس البيضاء.. وبعد فترة قصيرة انشقت السماء عن سحب لها لون التركواز. السكون يطغي على السديم الأسمر المحمر الذي يميز منتصف الصيف، وكأن الرياح الموسمية قد استنفدت كل قوتها... رحت أسائل نفسي: كم ترى يكون عدد المشيعين الذين يمكن أن يحضروا بعد ظهيرة يوم السبت؟ إن نهاية الأسبوع ليست وقتا ملائما للموت، فالناس لديهم أشغال أكثر أهميه من حضور جنازة!

هاهو جسدي ملقى على الأرضية الخشبية في غرفة المعيشة، ولكن أين ذهب القتلة؟ عندما كنت أرفرف حول المنزل شاهدتهم في الغرفة التي استخدمها مرسما. «چورچ» و«مارى» يقفان بالقرب من كومة قماش لوحات قديمة مكدسة في أحد الأركان. قال وهو يتأمل بعضها:

– «هل تعرفين أحدا من الموديلات العاريات؟»

– «لا»

– «هل حاولت ذات يوم أن تعرفي؟»

– «كنت أرسل «رامو» إلى الاستوديو الخاص به في وسط المدينة... ولكن للأسف...»

وبعد أن توقفا عن الكلام فترة قصيرة، عاد يسألها:

– «هل سبق أن رسمك عارية؟»

قالت – «لا أتذكر»

ولكنها كانت تكذب، كانت «مارى» موضوعا لواحدة من أجمل لوحاتي العارية. عندما حاول «چورچ» أن يطوق خصرها بذراعه، انسلت من بين يديه..

– «ألا ترى أنه مايزال في المنزل..»

– «عدنا مرة أخرى لتلف الأعصاب!»

قالت :- «دعنا نخرج إلى غرفة المعيشة... فالمشيعون على وشك الوصول...»

وخرجا بينما كان يهز كتفيه...

كان أول من حضر للعزاء جيراننا «جوپال» و«سارلا مينون». قال «جوپال» وعيناه على جسدي بينما كانت «سارلا» تنظر إلى وجه «مارى» بشفقة: «صدمة شديدة لنا!»

ردت «مارى» وهي تفتعل الحزن: «هذه إرادة الله»... وكانت تحاول أن تستحضر بعض الدموع لعينيها العاديتين... تقدمت «سارلا» وأمسكت بيديها، «لاتبك ياعزيزتي، وتأملي ماحدث لنا أيضا...»

يبدو أن موتي قد أحيا كل الذكريات الأليمة عن ابنهما «أمارنات». ارتعشت شفتا «جوپال» وتدلى رأسه، وكنت اسمعه يبكى إلى الداخل وهو يردد:

- «أي عدل هذا ياإلهى، لم أكد أنسى ابني بعد. إنني أراه كل ليلة وجسده يحترق وسط النار، يذوب فوق المحرقة جزءا جزءا... والآن هاهو جار عزيز يرحل... لماذا نعجز عن فهم هذا اللغز... الموت؟»

فجأة صرخت «مارى»: «پيتر.. اخرج من هنا!»

دوت صرختها المفاجئة في فكر «جوپال» فقال لنفسه: «أي امرأة تلك؟!»، ولكن «پيتر» ظل في مكانه يلعب بالقرب من جسدي غير عابئ بغضب وصراخ «مارى»، كان يتشمم جسدي من الرأس إلى القدم، بدا مرتبكا ثم انكمش على نفسه في ركن بعيد واضعا خطمه بين قدميه الصغيرتين... سمعته يفكر: «قضى صاحبي! نحن على خلاف أولئك البشر يمكننا أن نتشمم الموت. ماهكذا اعتاد سيدى أن ينام على الأرض العارية باردا لاحراك فيه... ليلة الأمس فقط زحفت تحت أريكته عندما عاد من الخارج متأخرا بعض الشيء، كان يتنفس بصعوبة طوال الوقت وكنت أشعر أن هناك مايقلقه.»

«كم أكره هذه السيدة! انظر كيف صرخت فيّ، إنها يمكن أن تضربني... لايهم... سأبقى هنا.. أريد أن أكون قريبا منه.»

لو كان للأرواح أن تبكى لانفجرت في البكاء. لو كان للأرواح أن تلمس لتركت أصابعى تمسد جسده المخملى وأذنيه الطريتين، لو كنت أعرف أن موتى سيمزقه هكذا لأورثته كل شيء، ولكن احتياجات الكلاب محدودة، ليست أكثر من وعاء من اللبن وقطعة خبز وبعض اللحم وحب سيده، ولكن يا «پيتر» كيف كان لي أن أعرف أنني سوف ألقى منهم هذه المعاملة المهينة؟! كنت مثل غيرى من البشر أتمنى أن أعيش إلى الثمانين مثلا! هل تذكر الجزار الذي

اعتدت أن أشترى لك منه اللحم المفروم؟ ألم يعمر حتى الرابعة والثمانين؟ ألم يكن سليما وبكامل صحته حتى اللحظة الأخيرة؟ ألا يتخيل البشر أنفسهم خالدين أبدا؟!

«اخرج من هنا»

وأسرعت نحو الركن الذي انطوى فيه «پيتر» على نفسه وبدأت تجذبه من طوقه. زمجر وكنت أسمعه يقول لنفسه: «لماذا تتقصدني؟» «كم أكرهها».. «أعرف أنها سوف تطردني من المنزل»

وبينما كانت «مارى» تجذبه عبر الباب تدخل «جوپال»:

– «ربما كان هو أيضا في حالة حداد، اتركيه هنا من فضلك»

– «أترك كلبا بالقب من جسد ميت؟»

– «ولكنه ليس أي كلب ياسيدتي. أنت تعرفين كم كان «كريشنا» يحبه، ولم يحدث أن حضر إلى منزلنا أبدا بدونه»

تركته «مارى، فمضى «پيتر» خافضا رأسه.

قال «ست كيشورى لال» وهو يدخل: «شيء فظيع، لقد سمعت الخبر لتوى في راديو عموم الهند، كان ذلك تقديرا وتكريما لفنه. لاشك أن موته خسارة كبيرة لولايتنا.. للهند كلها» هل تعرف السيدة «كريشنا» أنه كان يرسم «بورتريه» لي؟... أنا «كيشورى لال» من مصانع «جانيش» للنسيج.

– «نعم ... سمعت عنك»

وبدأ «كيشورى» يقول لنفسه: «كان لابد أن يموت بعد أن ينتهى من ذلك! المجرم... مات وصورتي على وشك الانتهاء... ولكن هل تعرف تلك المرأة ياترى أنه قبض مني خمسة آلاف روبية ثمنا لذلك العمل الذي قضى دون أن يكمله؟! ألا يجب أن تطلب من مصور آخر أن يكمله.. أو على الأقل تعيد إليّ مقدم الثمن الذي دفعته لزوجها؟»

لم أكن أتصور أن يكون «كيشورى لال» حقيرا إلى هذه الدرجة حتى في يوم إحراق جسدي. بالنسبة لمقدم الثمن فكان الآن مسألة بينه وبين «مارى».. ولكن هناك «چورچ» أيضا.. ألن يحتاجا بعض المال من أجل شهر العسل؟!

كان ثاني المعزين الذين حضروا هو «ناڤنيت ديشپاندى»، وبعد عبارات المواساة التقليدية التي يحفظها جيدا، جلس هادئا في أحد الأركان وراح يراقب سمكة تتراقص في الحوض أمامه.

سمعته مستغرقا في التفكير في ترقيته الوشيكة. «سيشعر كل موظف في إدارتي بقوة قبضتي.. سأجعلهم يعرفون معني العمل وسيكون ذلك هو أسلوبي لكي أثبت نفسي رئيسا للأكاديمية. وعندما كانت «مارى» تمر من أمامه لكي تفتح النافذة خلف حوض السمك وقعت عيناه على ساقيها... «هل يمكن أن يحدد المرء عمر المرأة من شكل ربلة ساقها؟» كان ذهن «ديشپاندي» الآن قد اتخذ وجهة أخرى «لماذا ينظر المرء إلى وجه المرأة فقط؟ إن كل عضو في جسدها يحمل بصمة عمرها.. ألم تكن تلك المرأة صغيرة بالنسبة لرجل في الأربعين؟» .. «لست أدرى لم تستر المرأة الهندوسية الأجزاء السفلية من جسدها، تغطيها بالتنورة أولا.. ثم بالسارى.. إن ذلك يذكرني بالساحر الذي يخفي بيضة دجاجة في صندوق صغير داخل عدة صناديق تتدرج في حجمها أكبر فأكبر.. يظل يفتحها واحدا تلو الآخر أمام دهشة المشاهدين وتشوقهم...

ألا يشبه ذلك السارى المتاهة... اللغز...؟ أنا أفضل التنورة فقط، وفي أي وقت، بسبب سهولة الوصول.. المغوى!.. وهذا ما تتفوق فيه المسيحيات على نسائنا. التنورة تدعو العين لاستكشاف الجسد.. من القدمين حتى الركبتين.. بعد ذلك ينطلق عنان الخيال.. إذا كانت هناك قوة دافعة كافية فأنت واصل لامحالة إلى النبعين الطريين اللذين يحملان حليب العاطفة والرغبة. أراهن أن هذه المرأة سوف تشعر قريبا بطعنة الوحدة، وستبدأ ربلتا ساقيها المحكمتان في الارتخاء والضعف.. ستنام بمفردها ليلة بعد ليلة وليس هناك من يدلك لها ذلك الجسد الشهي المشتهي! سأكون على استعداد لمساعدتها! وعندما كانت عائدة بعد أن فتحت النافذة قال لها:

– «أرجوك ياسيدتي، دعيني أعرف إن كنتُ أستطيع أن أقدم لك شيئاً، أن أكونَ معينا لك في أي أمر... مهما كان...»

– «بالتأكيد ياسيد «ديشپاندي»، السيد «جوپال» هناك يشرف على تثبيت المحفة.. ولكن إذا كان هناك أي شيء آخر.....»

– «أي شيء، أي خدمة ياسيدة «كريشنا»»

– «شكرا... سوف أخبرك بالتأكيد»

ثم خرجت من الغرفة.. بعد ذلك راح «ديشپاندي» يفتش في جيبه الأيمن عن علبة سجائره...

«من أسف أنه لايمكن التدخين هنا، ولكنه بعد قليل سوف يحترق بكامله في المحرقة مطلقا الكثير من الدخان، كم هو أمر مضحك!

وأنت طالب لايسمحون لك بالتدخين في غرفة الدرس، ولا في دورات المياه، ولا في السينما، ولا في المعبد، وكلها قيود بغيضة... ربما كان بإمكاني الخروج من هنا لجذب نفس أو نفسين..

كنت أتبعه خارجا، فرأيت الشمس تبدأ رحلة المغيب... لابد أننا بعد الظهر الآن.. تساءلت بيني وبين نفسي عن موعد وصول والديّ من «نظام أباد» لكي ننتهي من عملية الإحراق المزعجة. في الفناء الخلفي بالقرب من مرآب السيارة رأيت «چوس» (متى جاء؟) يساعد «جوپال» في تثبيت المحفة لكي يحملوا جسدي عليها إلى المحرقة. كانوا قد شبكوا بعض أعواد البامبو المتساوية في الطول – طولي– وكان «چوس» يقول لنفسه: «لم يكن مجرد سيدى، بل كان صديقا، لم يلفظ كلمة قاسية واحدة... وماذا لو كان ضعيفا أمام النساء بعض الشيء؟ ألم تنجذبن نحوه انجذاب برادة الحديد للمغناطيس؟»

«كنت أعرف عندما يطلب مني دائما أن أبحث عن «رامو» ذلك الجاسوس... ولكننا لم ندعه أبدا يقترب من الاستوديو.. لماذا يتبعون دائما الرجل الذي ينشد بعض المتعة في الحياة؟ ماذا لو أنني لم أسمع الخبر في راديو عموم الهند! أعرف أن السيدة سوف تستغني عني بعد يوم أو يومين فهي لم تحبني أبدا.. والآن لم تعد لي فائدة بالنسبة لها..! قضى الأمر! ربما فكرت في أن تبيع الاستوديو لشخص ما وستكون تلك هي النهاية.»

تمنيت لو أنني أستطيع أن أواسى «جوس» الذي هزني إخلاصه ووفاؤه.

عندما دخلت السيدة «دوپشوارى پانرچي» يتبعها زوجها السمين، عرفت أنهما سوف يكملان تصفيتي..! إذا كان «ديشپاندي» يريد أن يستولي على منصبي، فإن هذين الشخصين يودان شراء مقتنياتي الأجنبية. منذ أيام قليلة كانت تريد أن تشتري ساعتي الإلكترونية (آه لو علمت أنها قد سرقت!)، وكان زوجها الذي يتفجر غرورا بثروته السوداء يقول باستمرار: لا أستطيع أن أرفض طلبا لعروسى! رغم أنها كانت في الرابعة والأربعين وهو قد تخطى الخمسين.

أنبت نفسي على الانغماس في أفكار لاتليق في يوم جنازتي قال «دوپشواري مخاطبا «مارى» وهي تسحب طرف السارى على رأسها احتراما للروح المفارقة :

«كان للخبر وقع الصاعقة علينا..»

وتدخل زوجها :

«صدمة لنا جميعا في الحقيقة..»

أشارت «مارى» برأسها لهما لكي ينضما للآخرين في غرفة المعيشة، ولكنهما خرجا بعد قليل ليجلسا على مقعدي الذي كنت أجلس عليه دائما في الحديقة تحت شجرة المغنوليا. ربما كانا يودان الانفراد بنفسيهما لتحديد الأشياء التي يريدان شراءها بعد أن ذهبت. هناك غسالة ملابس فرنسية وتلفزيون انجليزي ملون وساعة حائط سويسرية.

توارت الشمس في السماء ولا أثر بعد لوالدىّ. ترى هل تعطلت بهما السيارة الأجرة أو

حدث لهما مكروه!؟ أشعر كأنني مريض في حجرة الطوارئ أعد نفسه لعملية جراحية كبيرة ويريد أن ينتهي منها على وجه السرعة، وفي نفس الوقت كان المعزون يتوافدون مثلما يتوافد المدعوون على حفل عام، ثم.. ياإلهي! مفاجأة... مذهلة! لماذا جاءت «پراتيما» إلى منزلي؟ إنها آخر من كنت أتوقع أن أراه هنا... ألا يثير وجودها الشك لدى «مارى»؟ من المؤكد أنها ستظنها واحدة من عشيقاتي أو موديلاتي! وإلا ما الذي يجعل سيدة جميلة في الثامنة عشرة من عمرها تظهر في جنازتي؟ لابد أنها سوف تلفت الأنظار إليها وسط هذا التجمع بكل ذلك الجمال الساحر! «ديشپاندى» وغيره.. ليتها جاءت مع زوجها الصغير.. حفاظا على المظهر فقط.. ولكنها دخلت مرتدية السارى الذي كانت ترتديه في الحفل إياه! سمعتها وهي تجلس بجوار جسدي بهدوء وهي تفكر:

- «ها هو مسجى... بعد أن ضاعت كل العواطف المشبوبة. هذا هو الرجل الذي أتي لي بالقمر وجعله ملك يميني ليلة كاملة... كنت أعرف أنه يعتبرني فتاة صغيرة السن تحاول اصطياد فنان شهير..

مازلت على حبي لك.! لو أنك فقط حاولت أن تُقّبلني! ولو قبلة واحدة في ذلك المساء.. ولكن ليس على خدى كما فعلت بطريقة أبوية.... كنت أريدها قبلة كاملة على فمي.. في فمى.. حتى أستطيع أن أشربها عميقا.. وطويلا...»

«رأيت في عينيك الشعور بالذنب، هل كان هو الفارق بين عمرينا؟ التاسعة عشرة في مواجهة الأربعين.. ولكن من يهتم بذلك؟ لقد قرأت مرة في مجلة أمريكية عن روائي في السبعين تزوج من فتاة في التاسعة عشرة، وأنا سأبلغ العشرين في الربيع القادم!

لقد مضيت بعد أن حركت مشاعري متصورا أنه ليس أكثر من «حب أطفال»... حسن!.. أنا هنا ياحبيبي لكي أريك أنه لم يكن كذلك»

كان ذلك كله يأتينى على شكل رؤى، والآن أدرك أنها لم تكن مجرد فتنة مساء مثير! لو أنني أستطيع أن أشرح لها؟ ليتك تستطيعي أن تسمعي أفكاري أنا أيضا يا «پراتيما»!حينئذ ستعرفين أنني لم أكن على استعداد لمواجهة ما حدث في ذلك المساء - على الأقل مقابلة إنسان مثلك.

أولا.. ما كان لواحد في مثل موضعي أن يذهب إلى نادي الرسامين الشبان وهو يعرف أن هناك حفلات كوكتيل وحشيش وأنهم جميعا تحت الثلاثين. ثم إنني وجدت نفسي الرجل الوحيد هناك دون شريك نسائي.. ففكرت في إغواء واحدة من أجل ذلك المساء، واخترتك فريستي.. كنت الأصغر والأجمل... قررت أن استولي عليك من زوجك الشاب. شربت كأسين من الويسكي ثم طلبت بعض الحشيش... وبعدها وَصَلْتُ! وعندما بدأ وجهك يضوى مثل

مشكاة في زجاجة، انفكت عقدة لساني وانطلقتُ في الكلام عن نظرياتي المفضلة في الفن والجمال. كنت أنت حافزي المباشر. وأنا، متشبثا بوجهك، أتكلم عن جمال المرأة كانتصار نهائي لله. ألم يكن القبح خطيئه؟! نوعا من التشوه الأخلاقي؟! إن الله نفسه لابد أن يكون قد وقع في غرام حواء بعد أن خلقها... هل هو نوع من سفاح القربى المقدس؟! عند هذا الحد أدركت أنني قد خلعتك من قدميك، وعندما تركت عيني تتهاديان على صفحة وجهك كتجل آخر من تجليات القوة المقدسة، احمر وجهك خفرا. رأيتك تذوبين. «كم من البشر يستطيع أن يفكر بمثل هذا الجمال»، عندما نطقت بتلك الكلمات نظرت إلى ثغرك.. انفرجت شفتاك تويجات زهرة... عرفت أنني قد لمست قَلبك... ولكن... ياإلهي! كم زيفت كل شيء! كل تلك الكلمات الكبرى عن الإبداع والجمال والقبح... والحقيقة إنني طوال الوقت كنت أسبر أغوار جسدك.. عرفت أيضاً أنني قد حملت حملا ثقيلا لا أقوى على المضى به.. فكيف يمكن أن أقبلك من فمك.. في فمك..؟ لا! كان لابد أن تكون قبلة عجلى على خدك الأيسر...

ولكنك قلت: ولماذا يكون شخصا موهوبا مثلك حكرا على امرأة واحدة! لابد من وجود قانون ضد هذا الاحتكار... أرجوك يا «پراتيما»... ابتعدي!

كان بودى أن أهمس في أذنها... «احذرى «ديشپاندى»... لقد بدأ يحدق فيك!»

- ٦ -

نبتهج نحن بنى البشر كثيرا بفكرة خلود الروح. جميع الأديان تقريبا تؤكد بقاءها بعد فناء الجسد، ولكني أستطيع أن أقول أن خلود الروح يمكن أن يكون لعنة حقيقية، بلاء، طائرا في عنق الإنسان. ألاليت الفرد منا ينتهي تماما بالموت.. جسدا وروحا. ليته ينتزع مثل النبات جذرا وساقا ويلقى به في سلة المهملات. إن سعادته الحقيقية لن تكون إلا بعد تحرره من وعيه تماما بعد الموت. يقولون أن قلب السلحفاة يظل يخفق عدة ساعات بعد موتها، ولكنه يدخل بعد ذلك إلى عالم النسيان التام... أما الإنسان فلا! إن بقاء روح الإنسان بعد الموت يشبه عذاب جندى جريح في خندق، أصابته شظية وراح يذوى دون أن تلوح لعذابه نهاية. وكأن كل ذلك العذاب لايكفي! يولد الإنسان مرة أخرى ليمر بدورة ثانية من الألم والموت والوحدة والخيانة... لماذا لاتمنحه يارب خلوده الأبدى الذي يستحق.. الفناء التام لجسده؟ اجعل الروح يارب تختفي مع الجسد، دعها تفقد الذاكرة.. والقدرة على السمع والبصر..

عندما وصل والداي عرفت أنني سأعبر محنة الموت مرة أخرى. سأمر برحيل ثان. دخلت أمي غرفة المعيشة، وقفت متجمدة أمام جسدي ثم تهاوت على الأرض.

«كيف تبقى أم على قيد الحياة بعد ذهاب جزء من جسدها» ظلت تولول كأنها تردد لازمة في ترنيمة جنائزية. بعدها استدارت نحو المعزين وهي تقول: «أرجوكم... اتركوني مع ابني قليلا.. إنه في حاجة إلى حمام قبل أن يرحل» ثم انخرطت في البكاء ثانية. وهنا تدخل أبي: «ولم لاتتركيني أغسله؟»

- بل «سأقوم أنا بذلك!»

كانت «سارلا مينون» تقف بجوارها فاقتربت عارضة أن تناولها دلو الماء.. نظرت أمي إلى «مارى» وقالت: «وبعض العطر أيضا.. نعم سيكون نظيفا معطرا كالعريس...» ثم انفجرت في البكاء مجددا..

قلت لنفسي: «آه ياأمي! لماذا تمزقين نفسك هكذا؟ تبكين فوق كتلة من اللحم... ليس ذلك سوى جسدي بينما الشيء الحقيقي يرفرف حولك ويسمع مايدور بفكرك... هذا هو جوهرى الحقيقي، تماسكي ياأمي... لماذا تخليت عن الجيتا؟ لماذا لاتسلمى أمرك للإله

«كريشنا» ؟ ماذا عن نصيحة الإله بأن الغافلين فقط هم الذين يبكون وفاة الجسد ؟»

«لا تدعي الموت يهزمك هكذا! اهدئي نفسا... ولو من أجل سلام روحي! أليس ذلك مايبتغيه المعزون من صلاتهم لـ«شانت» عند مغادرة الروح ؟»

وحيث كان الجميع قد غادروا الغرفة الآن، خلعت أمي عن جسدي ماعليه من لباس، ولدهشتي هاهي تتوقف عن البكاء. حدقت في وجهي ذاهلة زائغة البصر، فشعرت بالخوف خشية أن تكون الصدمة قد أفقدتها عقلها..

«هكذا كنت تبدو يا «رامي» وأنت في الثامنة من العمر عندما كنت تخرج من غرفتك في الطابق الثاني كل صباح وتطلب مني أن أحممك، تتكئ على حاجز السلم وتنادي «أنا جاهز ياأمي» وأنا أحدق في الزهرة الصغيرة بين فخذيك وأنت واقف هناك وردى الخدين مثل ملاك ريان... ياملاكي الصغير، كنت أشكر الله لأنه أعطاني ابنا، «نعم يا«رامي» .. سأكون معك بعد لحظات.. مازالت آثار العجين على يدىّ» .. ثم أغسلهما بسرعة، أغلق الموقد وإناء الشاي يغلى من فوقه أو الأومليت تئز في المقلاة..»

أشعر كأنني أرد عليها: «نعم يا أمي، أتذكر كل ذلك، كنا نلعب بينما الوالد يمارس تراتيله في غرفة الصلاة.. لا.. لم يعترني أي إحساس بالخجل وأنت تحمميني وتحكين ظهرى وترطبين «زهرتي الصغيرة» ببودرة التلك ثم ترشين جسمي كله بكولونيا «آفون»... هل تعرفين يا أمي أنك علمتني – رغم أن ذلك لم يكن عن عمد– كيف أتعامل مع الجسد العاري ببهجة ؟

آه ياأمي! ليتني استطعت أن أشاركك سرا وأنا على قيد الحياة! كانت مواجهة طفوليه مع العرى! هل تذكرين جارتنا الصغيرة «زينات» ؟ ذات صباح صيفي، كنت ألعب «الاستغماية» مع بعض الأولاد في غرفة السطح، وعندما اختبأت خلف إحدى الخزائن ونظرت متلصصا من خلال ستارة الشباك التقطتها عيني وهي تستحم.. ورغم أنها كانت تستر نفسها خلف بعض قطع الغسيل المنشورة على الحبل إلا إنني كنت أرى جسمها من بين رجلي بنطال يقطر منهما الماء.

انحنت تحت يد المضخة تاركة شعرها الأسود الفاحم الطويل ينسدل غزيرا على كتفيها، استدارت وانثنت تحت الماء. كانت تدير يد المضخة بإحدى يديها وهي تحاول أن تكون قريبة من الفتحة التي يتدفق منها الماء. وعندما تحركت تفجر جسدها كله أمام ناظري. رأيت وجهها المغمور بالماء يتفتح مثل زهرة عباد الشمس صباح يوم ربيعي رائق، ولأن شعرها كان منسدلا خلف رقبتها حتى الفخذين كان صدرها عار والقبتان المبتلتان تلمعان في ضوء الشمس الدافئ. ودون أن تنهض على قدميها جذبت منشفة من على الحبل، جففت بطنها وخط الخصر والفخذين والساقين، ثم لفت نفسها في السارى وقامت. وعندما جاءتك في الصباح التالى تطلب

بعض السكر كنت أشعر بالحرج، كانت ترتدي ساري بألوان قوس قزح وبلوزة فاتحة اللون، واحمر وجهي خجلا عندما رأيتها متدثرة بعريها. وفي منتصف حديثكما معا نادتني إليها، قالت إنني طفل جميل وجذبتني إلى حجرها... ياإلهي! كنت استنشق عبق جسدها الطازج!

«ألم تنته بعد؟» قطع أبي استغراقي الحالم بهذه العبارة وهو يخاطب أمي، التي ردت قائلة:

- «بلا... إنه الآن جاهز.»

عندما وضع «چوس» جسدي الملفوف بكفن الحرير الأبيض على المحفة وأحكم رباطه من الرأس حتى القدم، استحال لون وجه أبي إلى الأسود، رأيت عروق رقبته تنتفخ.. وعينيه تلمعان بالدموع ويديه ترتعشان... كان على وشك أن يغشى عليه بينما تقتضي رجولته أن يتماسك وتمنعه من أن يجهر بما يكشف عذابه. كان يتمتم لنفسه وهو يحدق في الفضاء من حوله: كيف أصلى من أجلك يابني؟ لم يكن الآن يفكر في جسدي، نظر أعلاه مرتين، ونظر حوله، كأنه يعرف أنني روح ابنه التي لابد وأنها ترفرف من حوله وتحدث ذلك الطنين... سمعته يفكر في كل آيات المواساة، «الجيتا»[1]، «الأوپانيشاد»، و«الدهاما پادا»[2] البوذية.. كان أبى يتأرجح فوق الخط الفاصل بين الهندوسية والبوذية.

وبدأ في المناجاة: ياإلهي! ليتك تساعدني على أن آخذ مكان ابني على المحفة، ليته ينهض من فوقها حيا.. ثم راح يتلو بعض الأدعية:

«فليسدد خطاك يابني الإله ڤايروشاما

ولتكن الأم المقدسة للفضاء اللانهائي رفيق طريقك

ولتمر بسلام من طريق باردو[3] المخيف

ولتحل بك البركة القصوى.»

أردت أن أُذَكِّره: «ولكن هذه الصلاة وهذه الأدعية يا أبي من «كتاب الموتى» التبتي، ذلك الكتاب الذي طلبت مني ذات يوم أن أقرأه لأرى كيف أن «الجيتا» أفضل من ذلك الكتاب البوذي فكيف تكون هذه الردة الآن؟ أم تراك تريدني أن أتخطى كل العقبات التي يمكن أن

---

(١) أنشودة العظيم التي توضح طبيعة الإنسان والكون وهي جزء من المهابهاراتا.

(٢) كتاب يضم مجموعة من الحكم التي تصور النسق الأخلاقي من المنظور البوذي. وهي كلمة سنسكريتية وتعني في الهندوسية القانون الأخلاقي وفي البوذية الحقيقة الكاملة. «دهاما» معناها الورع أو العيش الفاضل و«پادا» معناها الطريق أو القوة أو الأساس. (المترجم).

(٣) الطريق التي تمر بها الروح بعد الموت وقبل إعادة الميلاد (المترجم).

أواجها في العالم الآخر؟ حتى «الباردو» ؟ ولكن هل كان الإله «كريشنا» يدرك هذا الشيء كفضاء لانهائي؟ «الكارما» فقط يا أبي هي التي ستحدد مستقبلي وهذا ما أعرف أنني قد فشلت فيه... لم أستطع أبدا أن أهزم الـ«مه» والـ«كاما» .. الرغبة والجنس!

هل تذكر كيف أصابك الفزع عندما اكتشفت رسالة غرامية من «شيلا» مخبأة في كتاب التاريخ لدى؟ «الجنس وأنت في السادسة عشرة؟».. صرخت فيَّ بحدة.. ثم طلبت مني أن أذهب لمقابلة كاهن في معبد «آريا ساماج» كما لو كنت في حاجة إلى عملية جراحية عاجلة. ولكن ذلك لم يفلح أبدا يا أبي لأن الرجل نَفّرَني منه تماما. كان حليق الرأس إلا من خصلة شعر وحيدة معلقة في منتصف رأسه، يقعى على سريره المعدني في مئزر أصفر يميل إلى البرتقالي، عارٍ حتى الخصر مثل الغوريللا، مرتان... وبينما هو يتحرك متثاقلا على عجيزته ظهرت خصيتاه. كرتان صغيرتان مفرغتان من الهواء كأنهما ورم غير حميد. وفي الحال دفعهما تحت مئزره عندما لمحني أنظر إليهما وظل يرتل من مخطوطة في يده اليمنى...

«تذكر
عندما يتغضن جسد امرأة
في قلب الوجود
يتدفق السواد في الأوراق،
هذا هو الجرح
الذي يتخلى عن العشب
تحدق الشمس مستسلمة
حتى نهبط نحن إلى عالم النسيان.
السيطرة على النفس
هي القوة
التي تحافظ على خيمة سيرك السماء
منصوبة فوق رؤوس البشر»

وبالرغم من أن معظم ماقرأ كان فوق إدراكي، إلا إنني فهمت الرسالة. وبعد أن نظف أنفه سلمني المخطوطة.. «هذا هو طلسمك ياطفلي العزيز، التخلي هو مفتاح الصحة العقلية والنرڤانا*» ولكنني، بينما كان يتمتم، رأيت على قاعدة شباكه زوجا من العصافير أحدهما فوق الآخر. كان ريشهما يهتز وهما يهدلان بعبارة معناها «لاشيء يهم!». هل تعلم يا أبي أن كاهنك هذا هو الذي أرسلني عائدا إلى «شيلا» ؟ وفي نفس المساء كنا نمارس الجنس في أحد بساتين المانجو مع نفس الهديل «لاشيء يهم!» فإذا كان ذلك هو ما زرعته فيَّ الـ«كارما» فأي مغفرة أبتغي من

* الاتحاد مع روح العالم وهي المتعة القصوى والسعادة النهائية (المترجم).

الله؟ لقد انتهيت يا أبي.... إلا إذا استجاب لدعائك لأن حياتك أنت كانت نظيفة.. ولو أثمرت صلواتك حقاً فإني أريدك أن تطلب لي أن أولد مرة أخرى على هيئة فنان. كلانا كما ترى مؤمن حقاً بقدرة الإله الأعظم. الفارق الوحيد هو أنك تدرك وجوده في كل شيء، حيا كان أو غير حي. بينما أدركه أنا في الجسد الإنساني».

انقطع تيار أفكاري عندما رأيت «چوس» و«جويال مينون» يحملان محفتي إلى خارج غرفة المعيشة عبر الشرفة الأمامية إلى الرواق حيث وضعوها على الأرض.

في هذه اللحظة بالضبط دخل «بقشيش» وعلامات التوتر والشحوب بادية على وجهه. من المؤكد أنه ما كان ليتركهم يطرحوني أرضا.. ولكن لماذا هذا التأخير؟ كان لابد أن يحضر قبل ذلك ليواسي والدى الذي لايعرف أحدا من الحاضرين هنا باستثناء عائلة مينون».

اقترب «بقشيش» من والدي وهو يقول له كيف أنه علم بالخبر من الراديو بينما كان يحضر حفل زواج موظف مسلم يعمل لديه بالمكتب. ثم كيف تأخر بسبب أعمال العنف الطائفي. شعرت وكأنني أريد أن أقول له: «كان عليك إذن أن تبقى هناك يا «بقشيش» حتى تسيطر الشرطة على الموقف... ربما كانت أعمال العنف ماتزال مستمرة إلى الآن. ماكان عليك أن تغامر بالخروج من تلك المعمعة وبخاصة عندما يكون رأسك المعمم هدفا أوليا. كان من الممكن أن يشعلوا النار بسيارتك وأنت بداخلها ويعتبرونها عملية إحراق لواحد من طائفة السيخ وهو حي، وربما تكون أحداث الشغب هي التي عطلت «ريزيا» أيضا، هذا إن كانت قد عرفت بالخبر.

ثم تقدمت «دوبشوارى بنچارى» متثاقلة نحو المحفة يتبعها زوجها وسألت أبي: «والآن كيف سيكون التصرف؟ لقد سمعنا أن منطقة «پاثيرجاني» كلها مشتعلة. هناك أعمال عنف وتخريب ومذابح وشغب واغتصاب بين المسلمين والهندوس. مئات الجثث ملقاة في الشوارع من جامع «مكة» حتى معبد «شيفا»، وكل الطرق المؤدية إلى المحرقة مغلقة... الفوضى عامة في كل مكان!» كان وجهها يلمع بالبهجة أكثر منه بالقلق وهي ترسم تلك الصورة المفزعة. سمعتها تقول لنفسها: «كم هو مثير أن يكونوا جميعا في مثل هذا الموقف المربك!»

وتدخل «چوس»: «هناك طريق آخر ياسيدتي، وهو آمن كذلك... أن نلتف حول سوراج جودا» خطر لي الآن أن «چوس» هو المسلم الوحيد بين المشيعين وأنه لم يكن خائفا، كان هناك بالطبع شخص آخر مسيحى في منزلي، وربما كان مايزال يتأمل الصور العارية في الاستوديو.

قال أبي: «فكرة لابأس بها، يمكن أن نمضي بسهولة على امتداد تلة عثمان عبر سوق الخضراوات المركزى». مجرد ذكر ذلك التل كان صدمة لي. آه لو عرف والدي ما واجهته أنا و«ريزيا» ذات مرة هناك!

وعندما كان المشهد المحزن يبدأ في الانقشاع دخل «كيشورى لال» «هل تريدون أن أبعث برسالة إلى المحرقة للاحتفاظ بدورنا في الحجز؟»، كان في صوته رنة من يصدر الأوامر..

«أنا أعرف كبير الكهنة هناك، سيكون الزحام شديدا لكثرة عدد الموتى، فالجثث تصل من كل مكان، ولكن «رام كريشنا كان شخصية كبيرة بكل تأكيد..»

«يالك من طاووس متباه! هل تتوقع أن يشكرك أبي لمساعدته في تأكيد الحجز وإعطائنا أوليه؟» كان ذلك يشبه العرض السينمائي الأول حيث يتزاحم رواد السينما! ولكن ماذا عن ضحايا المسلمين في أعمال الشغب والعنف الطائفي؟ تساءلت بيني وبين نفسي، ألا توجد مشاكل خطيرة معلقة.. مثل شراء مساحات صغيرة للدفن وماشابه ذلك؟ يبدو أن الموسم سيكون في ذروته بالنسبة لرجال الدين المسلمين والسيخ... حصادهم سيكون وفيرا.. ولابد أن تنتعش السوق السوداء... سوق الدفن والإحراق!

كيف سيتصرف «ياما» في ذلك كله؟ فكرت... سيكون مشغولا جدا... طوال الوقت. ولكنه إذا كان قد اختار اللحظة والقاتل والضحية... فلابد أن يكون هو الذي أشعل أعمال الشغب. ربما كان يفضل عمليات القتل الجماعى.. أليس من السهل عليه أن يدبر فتنة طائفية أو حادث تحطم طائرة أو نشر وباء يقضي به على مجموعة من البشر بضربة واحدة. ولكن والحال هكذا... لماذا لايشعل حربا نووية كونية تدمر الحياة على هذا الكوكب لكى يبدأ الإله دورة جديدة من الخلق؟ شكلا من أشكال إعادة الميلاد للأرض وتناسخ لكل أرواح البشر؟...» الآن كان بإمكاني أن أدرك وأن أرى أكثر مما كنت أفعل قبل موتي... والواقع أنني شعرت بإغراء لأعدل قول الإله «كريشنا» المقدس. يمكن أن أقول أن الإدراك الحقيقي، الفهم الحقيقي... يأتي للإنسان بعد فناء الجسد فقط وليس أثناء حياته. تطلعت إلى تبادل الآراء والتعليقات مع الأرواح الأخرى التي انطلقت من أجسادها أثناء أعمال الشغب... كم يكون مثيرا لو أن «ياما» نظم لنا جميعا حفل استقبال!!

مما التقطته من أحاديث جانبية بين المشيعين استنتجت أن وسط مدينة «حيدر أباد» كان يموج بجنون طائفي محموم، ذلك الوباء الذي يجتاح المسلمين والهندوس من وقت لآخر.

ويبدو أن أعمال العنف بدأت عندما كان موكب زفاف هندوسي يمر أمام مسجد مكة، وعندما طغت أصوات الموسيقى الصاخبة والغناء على صلاة بعض المسلمين في المسجد هبوا خارجين صائحين «اقتلوا الكفرة... اقتلوا الهندوس المجرمين...» وعندما سقط العريس بطعنة من سكين أحد المسلمين انقض بعض المشاركين في الموكب على مهاجميهم، ولم تحضر الشرطة إلى مسرح الأحداث إلا بعد أن كانت الجثث قد ملأت الشوارع. وبعد أن وجد قائد الشرطة هذه الفتنة الطائفية تحاصره لم يكن أمامه سوى إعلان حظر التجول.

تمنيت لو أنني أستطيع أن أطير إلى هناك لأرى ماحدث، أفليست الأرواح حرة تستطيع أن تذهب إلى أي مكان في أي وقت؟ ولكن كيف أترك منزلي وهم على وشك الخروج بموكب جنازتي؟ أأكون مثل المضيف الذي يترك ضيوفه ويذهب إلى حفل آخر؟ لم أستطع أن أمضى، فقد كان على أن أشعر بأنني العريس! ألا يحمل الموكب الجنائزى نفس الشكل والأهمية التي لموكب العرس؟ ألا يشبه صوت النعى صوت البشير؟

من الطبيعي أنني كنت أشعر بالحزن من أجل العريس الذي اختطفته يد «ياما» في لحظة التتويج في حياته. ولكن لم يكن ثمة فرق بين جسد ميت محمول على محفة، وعريس يحمله ظهر حصان، كلاهما يمضي في أبهة عظيمة! وتساءلت بيني وبين نفسي لو كنا نحن الهندوس قد فكرنا في إخراج الجثة على حصان بسرج مزركش، كان الجسد بالتأكيد سيحتاج إلى دعامتين لتبقى الساقان تتأرجحان على الجانبين كأنهما لشخص فوق صهوة الحصان. لماذا إذن جعلنا موكب الجنازة تتقدمه فرقة موسيقية غالبا ما تقوم بعزف لحن زواج قديم أو لحن من فيلم معروف. ياله من أسلوب غريب لوداع روح مغادرة! بالنسبة لي ما كنت لأمانع في الاستماع إلى بعض الموسيقى الجميلة أثناء جنازتي لو أن «مارى» كانت قد أبلغت رئيس الفرقة باختياراتي المفضلة.. قال «نافنيت ديشپاندي» لوالدي: «يبدو أننا لابد أن نصرف النظر عن الفرقة الموسيقية..!» ، هذه إذن ريشة أخرى ينزعونها من قبعتي! يحدث ذلك بعد أن خطف منصبي وبعد أن حدق بشهوة فاسقة في زوجتي... هذا «ديشپاندي» يريد أن يراني محروما من الموسيقى

كذلك!

حملق فيه والدى لتفوهه بذلك الفأل المشؤوم: «لماذا؟» قال: «هذه تعليمات قائد الشرطة بسبب أعمال الشغب في المدينة». رد والدي: «ياإلهي!»

وهكذا حظيت بجنازة صامتة. لاحظت كذلك أن عددا كبيرا من المشيعين كانوا قد بدأوا في التسلل من الباب الخلفي، فهل ياترى كانوا خائفين من أحداث الفتنة الطائفية؟ وحيث كان لا يسمح للنساء بدخول المحرقة فلابد أن تبقى أمي مع «مارى» في المنزل، وهذا أفضل لأنها لن تتحمل رؤية جسدي بين ألسنة اللهب! والحقيقة أنني شعرت بالسعادة لهذا الترتيب الهادئ المختصر، فما الفائدة من زحام شديد في المحرقة طالما أن معظم المشيعين يشعرون بسعادة في داخلهم لرحيلي؟ تمنيت ألا يظهر «چورچ» أو «رامو» أو «ديشپاندي» هناك. وقفت سيارة «دودچ» مكشوفة أمام البوابة الأمامية ويبدو أنهم استأجروها لحمل محفتي إلى محرقة «جيرد هارى لال». كانت تشبه سيارات نصف النقل التي ينقل عليها المقاولون الأسمنت والحديد ومواد البناء. قفز السائق من مقعده واتجه نحو آخر السيارة. حمل «بقشيش» و«چوس» ووالدى المحفة على أكتافهم ووضعوها فيها برفق. كانت أمي بشعرها المشوش ووجهها المغطى بالدموع تراقب المنظر، وفجأة دخلت في نوبة من التشنج الهيستيري الذي مزق سكون الكون، فاندفع أبي نحوها وأمسك بيدها قبل أن تهوى على الأرض. أرى وجهه مزموما، ثم دمعة كبيرة تتدحرج على خده الأيسر.. كانت أمي تنوح: «لماذا لا تتركون ابني معي لبعض الوقت؟ أنني لم أقبله حتى قبلة الوداع... لماذا حملتموه مثل كتلة الخشب.. كان يجلس في سيارته قبل ذلك كأنه أمير من الأمراء.. وقد وضعتموه كأنه أحد مشردى الأرصفة والطرقات....» وعندما اقتربت «مارى» من أمي في محاولة لتهدئتها شعرت وكأنني أريد أن أصرخ: «لاتدعي هذا الكيان يقترب منك.. إنها ملوثة نجسة... ملعونة بعقم الروح والجسد... كيف لامرأة مثلها أن تفهم حزن الأم؟! انظري هناك... هل ترين ذلك الرجل الواقف بالقرب من السيارة؟ هذا هو خليلها... عشيقها المسيحي المجرم... وقاتلي...»

أشار أبي إلى السائق ليدير محرك السيارة، كما انطلق عدد قليل من المشيعين نحو سياراتهم... وهاهي أمي غارقة في سكون مشؤوم بعد أن واجهت المحتوم... سمعتها تتمتم لنفسها: «وهكذا يمضون بقطعة مني، بينما تظل أم مريضة.. عجوز على قيد الحياة.. لماذا لايتركوني أقفز بين أحضان النار وأختفي مع ابني؟ ألم يكن مسموحا للأرامل بالانتحار على طريقة «السوتية»* على ركام أزواجهن في الزمن القديم؟!» وحيث أنني لا أستطيع الآن أن أتصور الحياة القادمة، فليتني أستطيع أن أنقل إليك السلام والفهم، وأتساءل: ترى عند أي عمر

* احراق الأرملة الهندوسية نفسها في محرقة زوجها المتوفي علامة على إخلاصها له (المترجم).

تدب الروح في الجنين؟ متي تصبح قطعة اللحم كيانا مقدسا؟ عند نهاية الشهر الرابع أم الخامس أم الثامن؟ لقد حملتني في رحمك تسعة أشهر كاملة، تركتيني أشاركك أنفاسك وطعامك وأحلامك... نعم... لقد كنت جزءا من جسدك ولكن حان الآن وقت الفراق. كل ماهو مولود يذهب ياأمي... وكل ميت لابد أن يولد من جديد، أليس ذلك ماتقوله لنا «الجيتا» ؟ تعرفين أنني بنهاية اليوم الثالث عشر سوف أولد مرة أخرى، لوحالفني الحظ فإنني أولد على هيئة إنسان، سأبزغ من رحم آخر... أمارس دورة من دورات الوجود إلى أن يقبضني «ياما» مرة أخرى. سوف تنوح وتولول على جسدي أم أخرى كما تفعلين الآن بالضبط.. وهكذا تظل العجلة تطحن إلى الأبد... أليس ذلك هو قدر الإنسان إذا لم يتحول المرء إلى «بوذا» أو «المسيح» أو «غاندي» ويصل إلى النرڤانا! ولكن هذا الانعتاق من دورة الميلاد والموت ليس للخطاة أمثالي. لذا فلتودعي جسدي دون عويل عساني أحصل على بعض السكينة قبل إعادة ميلادي،... امنحيني بركتك قبل أي شيء آخر..»

همس «جوپال» في أذن أبي «لابد أن نتحرك الآن!» نظر أبي إلى السماء فرأى أنها كانت قد فقدت وهجها.. استطالت أوراق أشجار جوز الهند المدببة حول سور المجمع السكني وامتدت على الممر المفروش بالحصباء كأنها رماح أو سيوف ملقاة على أرضية مستودع للأسلحة في ساعة الجرد.. قال أبي «نعم... حان وقت الرحيل..» وصعد إلى العربة وجلس بجوار السائق.

انطلق موكب السيارات خلف العربة «الدودج» يتهادي عبر انعطافات الشوارع، بينما كان صدى صراخ أمي يتردد في الجو. بعد ذلك زاد الموكب من سرعته عندما خرج إلى طريق «راشتراباتي».

نمر الآن على «جسر ريدى» عبر سوق الخضراوات المركزي وعيادة «سوماچى جودا» وفجأة توقفت جميع السيارات. قفز السائق من مقعده وفتح غطاء الدودج الأمامى.. ثم نزل والدي أيضا.. قال السائق: «أعتقد أنها مضخة الوقود.» سأله والدي: «وكم يستغرق إصلاحها؟». كان الآخرون قد نزلوا لاستطلاع الأمر...

– «عشرون دقيقة تقريبا ياسيدي..» قلت في نفسي: «اللعنة على كل شيء! أكان يجب أن تتعطل تلك العربة البائسة في هذا المكان تحديدا بالقرب من تلة عثمان؟! أم ترى ذلك من تدبير «ياما» الذي يريد أن يضطرني لتذكر ذلك المساء المرعب؟! ليت «چوس» لم يقترح علينا ذلك الطريق الملتف! ولكن كيف كان له أن يعرف أنني سوف أحتجز هنا؟ ليتني أستطيع أن أطرد كل ذكرى لذلك. وعلى الفور، شعرت بأن قوة ترفعني رغما عني على التل.. وبمجرد أن وصلت إلى القمة انفجرت ذكريات ذلك المساء.. وبكل الوعى... وبكامل تفاصيلها المحزنة... كل كلمة... كل إيماءة.

«لماذا جئت بي إلى هنا؟»

كان ذلك أول ما نطقت به «ريزيا» عندما صعدنا التل.

— «ألا يعجبك المكان؟ هذا الهدوء؟ إنها جنة عدن!»

قالت: «لاشك أنك مجنون! لاتوجد ورقة عشب واحدة هنا، لاشيء سوى الصبار والرمال العارية... وجلاميد الصخر من حولنا في كل مكان...»

«نعم، ولكن أليست جميلة؟ إنها مشذبة كأنها أعمال نحتية، تخيلي نفسك مستلقية فوق واحدة من تلك الصخور الملساء ساعة الغروب! ترقبين السحب من فوقك وهي تتخذ أشكالا مختلفة... مجموعة من كلاب الصيد ذات الأجسام المصقولة وهي في مطاردة ساخنة، قطيع من التماسيح، لباس مهرج في سيرك، كتيبة من الجنود تتحرك».. وفجأة، وثب عصفور أرقش فوق صخرة صغيرة وراح يسقسق كأنه يشارك «ريزيا» سخريتها مني..

— «تسخرين من ملجئي يا «ريزيا» ؟»

— «حسن! هذه جنة عدن عندك، ولكن لماذا أتيت بي أنا إلى هنا؟»

كانت تسألني وهي تغمز بعينها في غنج جميل! «لكي ترسمني عارية؟ لكي تمارس الجنس؟»

— «لاهذا ولا ذاك!»

— «لماذا إذن؟»

— «لنلعب آدم وحواء»

— «وما هذه اللعبة؟»

— «أن نستلقي هنا. عاريان فوق هذه الصخرة... يتأملان السماء.»

— «تأمل مقدس! مصور وعاشق ومجنون.. ثالوث غريب.»

ومن بعيد، كانت سرينة أحد المصانع تنادي عمال وردية الليل. نظرت إلى ساعتي.. السابعة والربع. كانت كرة الشمس البرتقالية قد أظلمت ثم انزلقت بهدوء وراء الأفق الرمادي، وبزغ القمر في مجده الأبيض ليبحر كالبجعة على صفحة السماء، في حركة متوازنة تشبه حركة البالية، ناعمة كتاج زهرة جميلة.. قالت «ريزيا» وهي تتطلع إلى القمر: «انظر! هاهو ينظر إلينا، ركز عينيك على حافة أنفه يأتيك الوجه كله حيا... جبهته العريضة، عيناه، فمه، ذقنه، طلة

إنسانية كاملة. هل هي امرأة وحيدة تحدق في حبيبها نصف الإله!.»

– «رائع! انتقلت العدوى إليك إذن! إسمعي يا «ريزيا» أنت مولودة لتكوني زوجة فنان، حبيبته، حتى ولو كان الذي وضع بذرتك هو «نواب سليمان على»

– «لاتكن سخيفا يا «رامى» !»

لابد أن أكون قد بدأت التطلع إلى القمر، لأنني عندما عدت لأنظر إلى «ريزيا» وجدتها مستلقية إلى جوارى عارية... امرأة غسلت جسدها ومسحته بالزيت المقدس من أجل طقس ديني وقربان إلهى!

قالت همسا وعيناها تلمعان في ضوء القمر الصريح: «كيف حالك يا آدم؟»

شعرت وأنا أخلع ملابسي بأنني مسحور بجمالها الآخاذ، ذلك الجمال الذي لم ألقه في حدود غرفة نومها...

قالت: «أراك مستغرقا في ضوء القمر..»

– «القمر مثل الرسم، يخلب لبى دائما، كما يحدث عندما يندمج الذهن تماما في اللوحة أثناء العمل، ويفقد المرء كل صلته بالعالم..»

قالت باسمة: «ضرب من التأمل.. التفكر.. الاستغراق الداخلي»

– «لا أعرف!»

انهمرت على أذني جلبة من الأصوات، أزيز خنفساء، نعيب بومة مكتوم من الجانب الآخر للتل كأنها لاتصبر حتى ينتهى الغسق ويغيم الليل، حفيف مجموعة من العصافير على شجرة قريبة. وبدأت يد تربت برفق على صدري مع لهاث عميق.... همست: «لاياحبيبتي، يجب أن نكتفي بمراقبة السحب والقمر.»

– «لماذا؟»

– «ألم تزل حواء حتى حملت؟ إن الجنة ما كانت مهيأة لأطباء الولادة ولا القابلات ولا أطباء الإجهاض.. كل ذلك جاء بعد الحية!»

– «لايهم، (كانت تهدل وهي تنهض لكي تعانقني) دع الحية تسعى الآن... وهنا!»

– «مازلت أشعر بأن علينا أن نلعب اللعبة طبقا للقواعد وربما في وقت آخر...»

– «لا.. فلنفعلها الآن وهنا.!»

كان صوتا أجش، ذلك الذي دوى عاليا من وراء الصخرة التي نرقد عليها، وقبل أن ننهض رأينا ثلاثة رجال يتدلى من أحزمتهم قراب مسدسات أمامنا في ضوء القمر. أضخمهم حجما، كان رجلا من طائفة السيخ له شارب كث هجم عليّ، بينما راح الآخران اللذان كانا يرتديان برانيط خضراء يوثقان «ريزيا» على الأرض ويكتمان أنفاسها لمنعها من الصراخ.

وبدأ الرجل الذي هاجمني يلوى ذراعى اليمنى فشعرت بأنها سوف تنخلع من ريشة كتفي. وبينما كنت أزحف تحت وطأة الألم الشديد، فك عمامته واستخدمها حبلا ربطني به من رجلي ويدى في شجرة ثم حشر منديلا في فمى. وبعد أن تركني مقيدا مكتوم الصوت خلع سترته الحمراء وبنطاله وملابسه الداخلية وزرع نفسه فوق صدر «ريزيا» منفرج الساقين، بينما كان الآخران يمسكان بساقيها بعنف على الأرض.

كان الدم يغلى في وجهى وقلبي يقفز في صدرى والدموع تتدفق من عيني، فتمنيت لو أن لي قوة إنسان الكهف لكي أحرر نفسي وأعصر رقاب أولئك الأوغاد. ولكني كنت أعرف أنني لست سوى إنسان ضعيف، قدره أن يمسك بالفرشاة ليلطخ القماش بالألوان... مجرد مصور مسكين! تمنيت لو أنهم عصبوا عيني كي لا أرى منظر امرأة لاحول لها ولا قوة تغتصبها شياطين.. عندما كانت «ريزيا» تحاول أن تخلص نفسها من بين مخالبهم وهي تركل بقدميها وتخمش بأظافرها مثل قطة متوحشة. ولكن سرعان ماخارت قواها وهي ملقاة مثل الجثة. كنت أنا أيضا أشعر بأنني جثة مربوطة بشجرة تركوها مدلاة تتأرجح بعد أن صوبت علها كتيبة من الرماة، وبعد أن انتهوا منها ارتدوا ثيابهم وتركوها. زحفت «ريزيا» على قدميها ودثرت نفسها بالسارى وعيناها تقدحان غضبا وشفتاها ترتعشان. ثم تقدم «السيخ» مني وأخذ يفك عمامتة قائلا وهو يبتسم: «حسن يارفيق»، ثم وبريق الانتصار في عينيه: «لابد أن تتعلم أن تشرك الآخرين معك في كل الأشياء الطيبة.. ألم تعلمك أمك ذلك في الصغر؟»

ومثل النمرة الجريحة، انقضت «ريزيا» على الرجل فركلته في ظهره وأنشبت أسنانها في ذراعه اليسرى. لم يحاول الانتقام، كل مافعله هو تصنع ابتسامة صفراء، ثم قال في خبث: «أيتها الغاضبة الصغيرة، ذلك هو نوع العاطفة المتقدة التي تضيء الحب ثم استدار نحوى «ولكن إذا حاول رجلك أن يحرك إصبعه الصغير فسوف نطلق عليه الرصاص ونتركه هنا للنسور».

وعندما انتهى كان الرجلان يخرجان مسدسيهما ويصوبانهما نحو رأسي. بعدها نظر «السيخ» إلى «ريزيا» وهو يقول:

«فليباركك الرب ثلاثا»

قالت وهي تصر على أسنانها: أيها الأفاعى! رد عليها: «هذا رجلك الشجاع، هادئ وحذر لأنه يعرف حدوده. رجل عاقل بالفعل!». أدركت أن الطلقات كان يمكن أن تكون أهون من

تلك الكلمات الخبيثه الموجعة بينما أقف عاجزا عن الحركة يملؤني العار. كأني حشرة سحقتها حذاء صلف. حتى بعد انصراف المغتصبين وبينما هم يصفرون كنت مسمرا في الشجرة وكأنني تحت تأثير مخدر، أحدق في القمر وأتخيله يخرج لسانه لي، ويصب سخريته على ضعفي وخنوثتي..!

بعدها سقطت على رأسي قطرة ماء. هل كان يبصق على؟، أم أنها بداية مطر..! مدركة مدى ما أنا فيه من خزى وشعور بالهوان، تناولت «ريزيا» قميصى وبنطالي وأعطتهما لي:

- «ارتد ملابسك!»

وبينما أنا أرتدى ملابسي أدركت أنها رغم كونها الضحية في كل ماحدث إلا إنها استعادت هدوءها، أما أنا فكنت في حالة شلل تام.

«نعم» قلتها متلعثما، وبعد دقيقتين سمعت طلقة نارية ثم صوت انفجار.

هبطنا ببطء من على التل وذهبنا إلى السيارة التي كنت قد تركتها بالقرب من المنحدر بين صخرتين. وعندما أدرت المحرك هبطت السيارة من أحد جانبيها.

قلت: «ربما يكون أحد الإطارات قد فرغ من الهواء». كانت تلك هي الطلقة... آخر أعمالهم الشريرة! أخرجت الرافعة من مؤخرة السيارة وبدأت في استبدال الإطار وفي صمت المساء كنت أسمع تساقط زخات المطر فوق العشب الجاف، وبعد وقت قصير كان الماء قد أغرق رأسي وكتفي.

لم ينطق أي منا بكلمة حتى أوصلت «ريزيا» إلى «قصر جولشان»: قالت وهي تغادر السيارة: «لا أعتقد أنك ستقربني مرة أخرى، لقد أصبحت ملوثة كما تعرف.. نجسة كما لو كنت عائدة من المحرقة».

قلت: «فلننس ماحدث لنترك كل شيء وراءنا»

- «حسن! لاتذكر شيئا عنه لأي شخص..»

- «بالتأكيد»

- «ولا حتى بيننا وبين أنفسنا...»

- «أبدا»

وعلى طول طريق العودة إلى منزلي كانت صورة واحدة هي التي تطفو في ذهني... جثتان!. واحدة مطروحة ومثبتة على الأرض والثانية مقيدة بالشجرة.. وداخلي كله شعور مؤلم

وإحساس بالإهانة... ولكن ماذا عنها؟

عندما التقيت «بقشيش» في المساء التالي في «نادي النظام» كان يلاحظ توتري، وعندما طلبت عصير البرتقال بدل الويسكي سألني: «مابك؟»

– «لا شيء»

– «قلق روحك باد في عينيك.. هل حدث شيء بينك وبين.........»

قلت – «ريزيا» ؟...«لا .. هي بخير!»

ورغم تعهدي لها بأنني لن أشرك أحدا في صدمة المساء الماضي إلا إن الرغبة الداخلية في إفراغ هذا العبء النفسي كانت شديدة.

وبَدَأْتُ : «ألا يخفض الإحساس بالإهانة من الروح المعنوية؟» وضع «بقشيش» كأسه وتقدم في مقعده كأنه يفتش في وجهي عن مفتاح لما بي من قلق....

– «هل يدبر «ديشپاندى» مؤمراة ضدك؟»

– «لا علاقة له بشيء من ذلك..»

– «سر؟ تبدو عليك علامات التفلسف!»

– «هل فكرت مرة في الشعور بالإهانة.... بالخزي؟»

– «بالطبع، ولكن ذلك لابد أن يكون متعلقا بموقف محدد...»

قلت – «ولكن لماذا لا نناقش هذا الشعور بشكل عام؟»

– «حسن! ولكنه يمكن أن يكون مدعاة لنبل الروح أيضا، يمكن أن يكون عملا من أعمال التطهر الذاتي، فهو دائما مرادف للوعى.. إنها تلك اللحظة التي يكون المرء فيها يقظا وعلى وعي كامل بنفسه.. أنا أعاني إذن أنا موجود... هل تذكر من الذي قال ذلك؟»

قلت وأنا أرتشف عصير البرتقال: «أعتقد أن ذلك كله مجرد تفاهة مبتذلة؟». وبعد أن أيقن أنه لن يفلح في استدراجي للبوح بشيء، تناول كأسه واعتدل في مقعده وهو يقول: «لماذا لاتدعك من هذه الأشياء؟!»، وبعد فترة صمت كنت أسأله:

«هل حدث أن امتهنت؟»

قال بصوت كئيب: «نعم... حدث ذات مرة!»

- «وكيف كان ذلك؟»

- «ذات مرة صرخ وزير الدفاع في وجهي أمام نائبى في محاولة للاستهزاء بي، وهدد بتحويلي للتحقيق في مخالفات مالية مزعومة.»

- «وكيف كان رد فعلك إزاء هذه الإهانة؟»

- «ابتسمت وأنا أعرض أن أقدم كل دفاتري للمراجعة.. لأي شخص في أي وقت!»

- «ترى... لماذا فعل ذلك معك؟»

- «أعتقد لأنني لم أحضر حفلا كان مقاما على شرفه، وكما تعلم لم أقصد أن أكون وقحا معه... ومع ذلك فقد علمني الامتهان الذي تعرضت له شيئا....»

- «وماهو؟»

- «أنني إنسان قابل للجرح! لابد أن يكون لديك الشفقة حتى على إنسان يؤذيك... وفي مثل هذه الحالة يكون وعيك في قمته.....»

قلت وأنا على وشك أن أكشف نفسي: «ولكن ذلك كان أمرا تافها..»

- «مقارنة بما حدث لك؟»

- «لا.. لم يكن أمرا شخصيا...» قلت ذلك بصوت خافت وأنا أنظر بعيدا عنه.

شيء ما في كلام «بقشيش» لمسنى من الداخل، فاتجهت مباشرة بعد الانصراف من النادي إلى «قصر جولشان». سألت «ممتاز» التي كانت جالسة في الحديقة لاتفعل شيئا:

- «هل «ريزيا» موجودة؟»

- «لقد أغلقت الباب على نفسها ياسيدي منذ مساء الأمس.. لا أكل.. لاشرب... لاشيء بالمرة.»

وتركت «ممتاز» مكانها، فتوجهتُ إلى الباب وطرقته بهدوء:

- «من؟»

-«أنا...»

سمعت وقع أقدام مضطربه على الأرض ثم أطل من الباب وجه متعب شاحب: «أنت؟»

أغلقتُ الباب ورائي وأخذتها من يدها برفق إلى السرير. عندما لمحت عيني لوحة «ديجا» -

الراقصة– على الحائط اكتشفت أنني أمام وجهين متناقضين: وجه الباليرينا المبهج ووجه «ريزيا» الذابل. خلعت ملابسي بسرعة وزحفت إلى السرير:

– «تعالي يا «ريزيا»

ولكنها وقفت متحجرة مثل أرنبة برية فاجأتها أضواء سيارة مبهرة في منتصف الطريق، قفزتُ وجئت بها برقة إلى الفراش.

كانت ترقد إلى جوارى ذاهلة ومنكمشة فشعرت أنني لو نظرت في عينيها سأرى صورة المغتصبين مجمدة فيهما.

همستُ: «تعالي....»

قالت: «ولماذا لانكتفي بالاستلقاء هكذا؟»

– «وهل هذا طبيعي؟»

افتر وجهها الشاحب المكدود عن ابتسامة واهنة فجمعتها بين يدى، وعندما بدأت أقبلها كانت قد أصبحت لينة مثل الصلصال. كنت أجردها من ملابسها وعيناها تراقب أصابعي وهي صامتة. عندما مارسنا الجنس في ذلك المساء تذكرت العصفورين في غرفة الكاهن في معبد «آريا ساماچ» عندما كانا يمارسانه برقة بالغة... لاتدافع ولاطيش في استخدام مناقيرهما الصغيرة. وفجأة اهتزت «ريزيا» في الفراش وغطت وجهها بكفيها وبدأت تنتحب....

– «ماذا الآن»؟. سألتها ويدى اليمنى تربت على شعرها بحنان. وبعد صمت لم يطل قالت:

– «شكرا.»

كنت وأنا أهبط من التل كأنني أهبط في حارة ذكريات متعرجة مظلمة. عذاب بالغ أن يخترق الوعى حياتي السابقة. كان موكب جنازتي يتحرك ثانية بعد أن انتهى السائق من إصلاح مضخة الوقود... ياللمصادفة.... مضخة ساخنة وإطار مفرغ من الهواء!

عندما اقترب الموكب من تمثال «غاندي»، أول نقطة بعد منطقة حظر التجول، كان زحام المركبات والمشاة كثيفا فغدت الحركة بطيئة. ترى هل كان الناس يتسابقون لشراء احتياجاتهم قبل موعد حظر التجول؟ وعندما كان شرطئ المرور يشير للجميع من أجل إخلاء الطريق لكي يتحرك الموكب... هل كان ذلك احتراما للميت؟ رأيت المارة في الشارع يقفون كلهم فاغرين أفواههم وهم ينظرون إلى محفتي...

قال أحدهم: «هذا «رام كريشنا» ، المصور المشهور.»

«كنت أنوى زيارة معرضه في قاعة اليوبيل الشهر القادم» .

«لا الزمن ولا المد ينتظران أحدا» .

«إن الله يختار من يحبهم أولا»

«ياله من يوم يموت فيه! إنه يمض إلى «بارلوكا»* دون موسيقى!»

«كان رجلا طيبا، هل سمعتم الكلمات الجميلة التي نعاه بها الراديو هذا الصباح ؟»

«راديو عموم الهند يمكن أن يقول مثل هذا الكلام عن أي شخص... ياعم! إنها كلمات محفوظة...»

* عالم الأرواح.

عندما وصل جسدي إلى محرقة «جيرد هارى لال» كانت صدمة أبى شديدة إذ رأي ست بقع مشتعلة بالفعل، بينما كان هناك عدد آخر من الجثث الملفوفة بالحرير الأبيض مسجاة على الأرض على امتداد الحائط في انتظار دورها. كانت الجثث المدثرة بالأبيض أشبه بمسافرى الليل الذين ينتظرون قطارا في ليلة شتوية.

قال «جوپال» لأبي: «لماذا لا تنتظر بالقرب من الجثة بينما أذهب لمقابلة الكاهن؟ أعتقد أنني يمكن أن أصل إليه..»

قال أبي: «و«كيشورى لال» أيضا بعث برسالة..»

– «وهذا مفيد كذلك...»

مضى «جوپال» إلى مكتب الكاهن فوجده جالسا هناك خلف الطاولة غير عابئ بالفوضى الموجودة في الخارج. دخل بهدوء ووقف وراء رجل آخر كان يجمع رماد جسد تم إحراقه.. وبابتسامة متكلفة سأل: «هل تتذكرني يامعلمي؟»

أجاب الكاهن: «بالطبع ياسيد «سينون».. هل كان ابنك؟» انقبض وجهه وعلته الكآبه وهو يقول: «نعم... ولكن هل يمكن أن أطلب منك خدمة؟»

– «تفضل!»

– «لقد جئت من أجل إحراق جسد صديق عزيز ويوجد في الخارج زحام شديد وطابور طويل..»

ابتسم الكاهن وهو يتململ في كرسيه ونظر من النافذة إلى الساحة الخارجية، وقبل أن ينطق كان «جوپال» قد وضع على الطاولة خمس ورقات من فئة العشر روبيات. اتسعت ابتسامة الكاهن وتمددت شفتاه وهو يكنس النقود بيده.. ثم قال وهو يدفع السجل أمام «جوپال»: «في هذه الحالة لماذا لا تملأ البيانات نيابة عن أصحاب الشأن؟ كذلك يمكن أن نعتبر ذلك حجزا مسبقا.»

- «شكرا يامعلمي...»

وبعد أن وَقَّعَ على السجل سأله جوپال: «ربما تكون قد تلقيت رسالة يامعلمي بنفس الخصوص من «ست كيشورى لال» ..

- «لا...»

كذب «كيشورى لال» إذن! ياله من مخادع غشاش! الرشوة فقط هي التي دفعت العجلة إذن وحركت العملية كلها.

والآن... وضعوا جسدي على الركام المشتعل واقترب مساعد الكاهن حاملا كتابا في يده اليسرى..

سأل «جوپال» وهو يشير إلى جسدي: «أين ابن المتوفي؟» ارتبك الكاهن، فشرح «جوپال» أن المتوفي هو إبن ذلك الرجل، وسوف يقوم والده بالطقوس الأخيرة.

- «أين هو إذن؟»

رد والدي: «أنا هنا يامعلمي.»

عندما أشعل والدي الركام ارتفعت ألسنة اللهب وكانت دموعه تلمع على خديه مثل حبات الندى في صباح صيفي..

تنهد والدي وهو يقول لـ«بقشيش» الذي كان يقف إلى جواره:

« .. هذه هي نهاية ابني....»

الآن أدركت لماذا لايسمح الهندوس بدخول نسائهم إلى المحرقة.. لو أن أمي هنا لقفزت في النار في هذه اللحظة. وبدأ الكاهن يتلو من الكتاب الذي يمسك به في يده:

«عندما يفنى جسدك في اللهب

ستذوب أنفاسك في الريح

وعيناك في الشمس

وعقلك في القمر

وسمعك في أركان السماء

وجسدك في الأرض

وروحك في الفضاء

ويتحول الشعر الذي على رأسك إلى نبات

والذي على جسدك إلى شجر

بينما دمك ومنيك

ومايتبعك إلى «بارلوكا»

بعد فناء الجسد

سيكون هو الكارما...

الأعمال وليس الأمنيات..»

وبينما كان الكاهن يواصل ترتيله بصوت رتيب بارد، كانت عيناه تتجولان كأنه يبحث عن الإعجاب على وجوه جمهوره بسبب أدائه المتقن، وفجأة طنت حولى همسات غريبة:

– و«هكذا نلتقي هنا!»

تملكتني المفاجأة!

– «هذا هو «راما سوامي» ، أو روحه بالأحرى إن كنت تفضل أن أقول ذلك.»

– «يالها من مفاجأة ياسيد «راما سوامي»

– «يمكنك الآن أن تدعوني بـ«رام» .

– و«إذن أنا «رامى»

قال الصوت: «لم أنتبه أبدا أن اسمنا الأول واحد...»

– «نعم!»

– « كيف حالك هنا يا «رامى» ، أقصد كيف كان فراقك لجسدك ؟»

– «غرقا.»

– «حادث ؟»

– «لا»

– «ولا أنا... توجد دائماً يد خفية وراء الأشياء»

– «هذا ما ذكرته الصحف. ولكنها... كانت واحدة من نسائي... هل تذكر تلك التي أحضرتها إلى الاستوديو عندك في آخر مرة؟»

قلت: – «وكيف تتوقع أن أتذكر كل نساءك؟ ألم يكن لديك سرب كبير منهن؟»

سمعت ضحكا في الهواء.

– «حسن! كانت واحدة من السرب! شاهدتني مع إمرأة أخرى فقامت برشوة سائق شاحنة شيطان لكي يصدم سيارتي وأنا عائد من اجتماع عمالي...»

– «حقا!»

– «ولماذا يكذب الموتى؟ لماذا نلجأ إلى المراوغة؟ لا أحد هنا لكي نخونه، لا أحد هنا لكي يخطف منك وظيفتك أو أي شيء آخر... لاشيء هنا سوى معرفة الذات...»

– «حسن! وأنا كذلك كانت هناك امرأة في حكايتي، هي زوجتي الحبيبة التي جعلت عشيقها يدفعني في نهر موسى!»

–«ياإلهي!»

ثم ساد صمت بيننا.

عدت لأسأله: «منذ متى وأنت هنا؟»

– «منذ الظهيرة، هل ترى ذلك الرجل الذي يرتدي «الدوطى»[١] و«الكورتا»؟[٢]. إنه ابني، وهو يقوم بجمع عظامي ورمادي.»

ولأن النار كانت قد أتت على نصف جسدي تقريبا، كان بعض المشيعين قد بدأوا في الانصراف، حيث توجهوا إلى الحنفيات العامة في الساحة خلف مكتب الكاهن وبدأوا يغسلون أيديهم وأرجلهم ووجوههم لكي يطهروا أنفسهم، رغم أن أحدا منهم لم يلمس جسدي.

يالها من هوة تلك التي تفصل بين الإنسان الحي والجثة! كنت أفكر. ذلك الكائن الحي الذي كان يسبح في الماء ويرسم ويستمع إلي الموسيقي ويمارس الجنس.... وتلك الكتلة التي تحترق وسط اللهب!

(١) مئزر للرجال في الهند.
(٢) صديرية

عرفت أن لاشيء سيكون في الانتظار في المنزل سوى عويل أمي، ولذا قررت أن أبقى في المحرقة. من المؤكد أنه ستكون هناك أرواح أخرى عديدة تحوم من حولي، أفلا يكون الحوار وتبادل الأفكار معها مثيرا؟!

بعد دقائق معدودة من مغادرة أبي و«بقشيش» و«جويال»، جاؤوا بمحفة أخرى إلى المحرقة. كان البكاء شديدا والعويل عاليا! ولكن لماذا كل ذلك مع أن الموتى سواسية في تحطيم قلوب الذين يحبونهم؟!

سمعت طنينا في الهواء: «مساء الخير ياسيدي!»

– «من؟»

– «أنا «لاليت ديوبي» ولكنك لن تعرفني، سمعتك تتحدث مع روح أخرى منذ دقائق وعرفتك من صوتك.. كنت قد سمعتك قبل ذلك تتكلم في معارض كثيرة.»

قلت وأنا سعيد بشهرتي حتى بعد موتي: «سعيد بلقائك!»

– «كنت عضوا في نادي الرسامين الشبان والحقيقة أننا سبق أن التقينا في .. .. ..»

قاطعته قائلا: «كيف جئت إلى هنا؟ ولماذا كل هذا البكاء والعويل؟»

– «أنا العريس الذي طُعِنَ هذا الصباح بالقرب من مسجد مكة.»

– «يؤسفني ذلك! لقد سمعت بالفعل عن أحداث الشغب والعنف التي تلت ذلك، ولكن يالها من موتة مأسوية... لقد خلفت أرملة وراءك!»

– «ولكننا لم نكن قد تزوجنا بعد... كما ترى»

– «على الأقل تركت وراءك حبيبة!»

– «ولا كانت حبيبة! إنها علاقة عابرة بين جيتاري وصوتها! وأنت تدرى كيف تنتهي مثل تلك الأمور. لقد حملت وأصابني الذعر، واقترحت عليها القيام بعملية إجهاض ولكنها لم توافق، قالت: سأحتفظ به للذكرى إن لم تتزوجني..! ألا يعتبر الإجهاض أيضا قتلا للجنين بعد أن دبت فيه الروح؟ أنت تعرف كل تلك المسائل المقدسة... المهم أنني وقعت في فخ الزواج!»

قلت: «ألا تعرف أنك خلقت مشكلة؟ أنت مسؤول عن زرع روح في رحم تلك المرأة، وأنت الآن على وشك الاندماج في رحم امرأة أخرى... رحم أمك المستقبلية!»

– «ياإلهي! لم أفكر في شيء من هذا القبيل بالمرة، لم أربط بين كل ذلك.. ولكن ألم

أعرض عليها الزواج بينما كنت أحب امرأة أخرى بالفعل ؟!»

قلت - «هناك إذن وتر آخر في حياتك!»

- «نعم! وهو وتر جميل، والحقيقة أنني كنت على وشك أن أخبرك كيف التقينا آخر مرة في الحفل السنوي للرسامين الشبان منذ أسبوعين... فقد كانت هناك أيضا...»

- «ومن هي ؟»

- «پراتيما ساسترى»...

جفلت عند سماع الإسم. كيف يمكن أن أخبره أنها كانت عندي في المنزل هذا الصباح فقط ؟ هل يمكن أن أعرفه أنها مازالت تحبني ؟ وإذا كان الموتى لايكذبون فإن حجب الأشياء ضرب من الكذب. الحمد لله لأن الأرواح لاتسمع أفكار بعضها الآخر..

- «وبالمناسبة.. لقد تأثرت جدا بنظرياتك عن الفن والجمال... أفكارك مدهشة!»

- «شكرا!»

وبعد صمت طويل عاد يقول: «ويبدو أنك تتذكرها أيضا!»

- «ليس بالضبط»

وهنا قررت أن آخذه بعيدا عن الموضوع خشية أن يستدرجني أبعد من ذلك.

- «أريد في الحقيقة أن أسألك عن شيء..»

- «ماهو ؟»

- «أعمال الشغب تلك... من ياترى المسؤول حقا ؟»

قال بلا تردد: «ربما كان أبي. لقد استأجر فرقة موسيقية من خمسين شخصا وصمم على المرور بها من أمام المسجد أثناء الصلاة... وكأنه يشن هجوما على قلعة مغولية. وأنت تعرف بالطبع شعور المسلمين حيال عزف الموسيقى الصاخبة وهم مندمجون في الصلاة. بالنسبة لهم يعتبر ذلك استهزاء بطقوسهم..»

- «نعم! ولكن أن تكون تلك هي رؤية هندوسي مثلك فهو أمر غير عادي..»

قال - «لعل الموت هو الذي يفعل ذلك. إنه يزيل الغشاوة من على الأعين فترى كل شيء من منظوره الصحيح!»

– «وماذا عن المسلمين الذين تركوا الصلاة وانقضوا على حفل الزفاف؟ أي صلاة تلك إذن؟»

– «وهم أيضا لاعذر لهم!»

– «ليتنا نستطيع أن نؤسس ناد لكل الأرواح نتبادل فيه الرأي..»

قال بذكاء: «ولكنه لابد أن يكون متحركا... العضوية لمدة ثلاثين يوما فقط، ألسنا مثل مسافري الترانزيت نتوقف في كل مطار لفترة قصيرة؟»

– «نعم!»

قلتها وأنا أضحك. وبعد أن خرجت مسرعا من المحرقة رأيت وجه الشمس الأصفر يكتسى لونا رماديا.. كان يتوارى في السماء مع خيوط من البني والبرتقالي مازالت معلقة بالأفق. أدركت أن النهار سرعان مايذوب في المساء ويترك المحرقة مروعة مقبضة.

في الأفق أمامي تتبدى ظلال العزلة واليأس. فهل ستكون مثل «ليل الروح الأسود» عند «سان چون»؟ انتابني الخوف! لماذا لم تظهر «ريزيا»؟ وهل تراها قد عرفت بموتي؟!

جعلني الانتقال من محرقة «جيرد هارى لال» إلى «قصر جولشان» رغم بعد المسافة، أشعر أن الروح تنتقل في الأثير أسرع من الصوت. كأنها لقطة كاميرا أوتوماتيكية أو طرفة عين أو الخفقة الأخيرة لذبالة شمعة!... ولم يكن هناك أدنى إحساس بالتعب..

أدركت أيضا أن الأرواح لاتنام ليلا أو نهارا... ليست في حاجة إلى أسرّة أو كراسى هزازة أو أرائك فهى ترفرف في الأثير دون توقف. بحثت عن «ريزيا» في كل أرجاء القصر... في غرفة الاستقبال.. في غرفة النوم.. وفجأة سمعت خليطا من الأصوات في جناح والدها... هل كانت معه؟ كنت قد ذهبت إلى هناك مرة واحدة في آخر احتفال أقامه بمناسبة رأس السنة. تذكرت ردهة الانتظار الفسيحة وأرضيتها الرخامية المفروشة بالسجاجيد السورية، والأثاث المصنوع من خشب الورد، والبسط العراقية المزينة برسوم نساء عربيات يقدمن النبيذ لعشاقهن في كؤوس بيضاء، أو الجمال المغطاة بسروج مزركشة تحمل أزواجا من المحبين حيث يطوق الواحد خصر عشيقته بيمناه وهو يقطع فضاء الصحاري الواسعة. عندما دخلت إلى الردهة رأيت مشهدا غريبا. كان «نواب» يجلس في أبهة على أريكة وثيرة ومن حوله صديقاه «سمرخان» و«شودرى بركات على شاه» وكانوا يشاهدون صراعا للديكة تحت ضوء ثريات ساطعة، وعلى كرسيين منفردين كانت «ريزيا» وشقيقها «بابار» يجلسان غير مكترثين بالديكة ولكنهما ينظران بقلق نحو والدهما. بدت «ريزيا» ورقبتها ممدودة إلى الأمام كأنها تريد أن تلفت انتباهه إليها، بينما الأب مستغرق في مشاهدة الصراع ولاشيء سواه. كانت السجاجيد والبسط مطوية لتفسح مكانا للديكة. في كل مرة كان الديك ذو الذيل الأحمر ينفش ريشه ويهاجم خصمه ويغمد منقاره في جسده كأنه يطعنه بسيف، ومن الأريكة يتصاعد التصفيق والمرح.. ثم أحمر وجه «نواب» فلفظ أوراق «البيتل»* من فمه بعد أن أصبح شديد الإحمرار.. كان منذ الصباح يمضغ تلك الأوراق وإلى جواره وعاء يبصق فيه من وقت لآخر كلما امتلأ فمه بالعصارة، ولكنه لم يرفع عينه من على الديكة لحظة واحدة.

وفجأة استدار ناحية سكرتيره الذي كان يقف وراءه مثل الحاجب وهو يقول بغضب: إفصل بينهما يا «ذاكر»، لقد فقدت تلك الكائنات العنينة همتها.. دعهما يشربان بعض

* أوراق نوع من الفلفل الحار المتسلق تجفف وتمضغ كالتبغ. (المترجم).

الشمبانيا علها تبعث فيهما الحمية. أريد قتالا حقيقيا، وليس هذا العرض التمثيلي. وعلى الفور أشار «ذاكر» إلى خادم طويل القامة عريض المنكبين فقفز إلى ساحة القتال وفصل بين الديكين ووضع أمام كل منهما وعاء بالشراب. وبمجرد أن بدأ الديكان يتجرعان الشمبانيا اشتعلت عيونهما بالحمرة وكأنها العقيق، وشعرا بأنهما امتلآ بالطاقة من أجل جولة أخرى. وقبل أن يطلقوهما... نهضت «ريزيا» من كرسيها وتقدمت نحو والدها...

- «آبا... أريد أن أتحدث معك في أمر عاجل. همهم «نواب» وعيناه على الديكة: «اللعنة!» ثم استدار نحوها بغلظة.. «هل الأمر عاجل فعلا؟ وهل هذا وقته؟»

- «نعم يا أبي»

- «تعالى ياعزيزتي.. وهل هناك أجمل من مشاهدة صراع للديكة.!»

ثم نظر إلى صديقيه وهو يقول: «أليس كذلك؟»

فقالا في صوت واحد: «بلا!»

احمر وجه «ريزيا» من شدة الغضب فعادت إلى مقعدها واستؤنف القتال كأنهما ملاكمان عادا إلى الحلبة بعد استراحة قصيرة من أجل جولة أخيرة.. ونهائية...

تقدم الديك ذو الذيل الأحمر نحو غريمه وانقض عليه ينقر وجهه ورقبته وبطنه حتى امتلأت الأرض بالدم الأحمر الدافئ، وكان «نواب» يقفز في مكانه مصفقا فرحا مع كل انقضاضة للديك المنتصر.

- «ياللجسارة! دع بطلي يقتل هذا الديك الضال!» وفي دقائق معدودة، كان الديك الآخر ملقى على الأرض ورأسه غارق في بركة من الدم.

استدار «نواب» مرة أخرى: «أين أنت يا «ذاكر»؟»

- «نعم سيدي»

- «هذا الديك يشوى في الكونياك لعشاء الليلة»

- «حاضر سيدي»

ثم صرف الخادم وهو يحدق في الأرض المغطاة بالدم، وقال وهو ينفخ صدره ويلكز أصدقاءه بكوعه: «ألا تشبه معركة «بانيبات»* الأولى، عندما هزم جدي الأكبر الكفار في قتال

---

* عندما غزا «بابار» الأكبر المنطقة في سنة ١٥٢٦م وأزاح الأسرة الأفغانية (اللودى) وأسس الأسرة المغولية وثبت حكم الإسلام في الهند حتى نهاية أسرة المغول وسيطرة الحكم البريطاني في أوائل القرن التاسع عشر (المترجم).

ضار؟ بعدها غنمنا الهند!» فأمّنَ أصدقاؤه على كلامه. ثم خيم الصمت!

بعد فترة قصيرة قالت «ريزيا» وهي تنهض من مقعدها وتتجه نحو الأريكة: «لابد أن أخبرك بشيء يا والدي، إنه أمر يخصك» كان صوتها مرتفعا وبه نبرة إصرار...

صاح «نواب»- «أهكذا يكون أسلوب مخاطبتك لأبيك؟ هل هي نبرات الديكة أم نبرات الدجاج تلك التي أسمعها في صوتك؟ لا أحب ذلك!»

- «دعني أقول لك أن هناك معركة أخرى تلوح في الأفق»، وكانت تجز على أسنانها «إنهم يطلبون دمك!» وهنا تدخل «بابار» الذي كان يقف إلى جوار شقيقته:

- «نعم يا أبي، وقد لايسعفك الوقت!»

قال «نواب»: «انظروا إلى هذين الطفلين.. إنهما يحاولان تخويفي..!»

نظرت «ريزيا» بحدة إلى صديقَيّ والدها مُلَمِّحَةً بأن من الأفضل أن يتركاهما لشأن عائلي خاص، وعندما شعر «سمرخان» و«شودرى سمر على» بما هو متوقع غادرا المكان. وجد «نواب» نفسه بين ابنيه فصرخ فيهما: «والآن ماذا عندكما..؟ الخدم؟»

قالت - «نعم يا أبي، إنهم ثائرون بسبب الإغتصاب.»

- «ولكن ألم أعرض عليهم عشرين ألفا..»

- «لن تشتريهم بنقودك»

ارتجف صوته: - «وماذا يريدون إذن؟»

- «اعتذارك... أو دمك!»

انفجر «نواب» ضاحكا! «تلك الحشرات... الديدان الزاحفة.... يطلبون من سليل الإمبراطور «شاه چيهان» أن يركع أمامهم! لن أحنى رأسي أمام أحد!»

ثم تجمد صامتا مثبتا نظرته على وجه ابنه وهو يسأل «ريزيا»:

- «ولكن ... ألم يعتذر لهم بالفعل؟»

- «يقولون إن ذلك لايكفي، يريدونك أنت.. »كانت تتكلم وفي صوتها رنة لوم..

- و«لماذا أنا؟ وهل أنا الذي اغتصبت الفتاة؟»

- «لقد اغتصبت مشاعر الشرف لديهم يا أبي عندما أهنت عامل الحديقة بالأمس. تحاول

أن تلقي إليهم بالنقود كما يُلقى بالعظمة للكلب.. إنك يمكن أن ترشو الشرطة، ولكن ليس أولئك الناس البسطاء.»

استشاط غضب «نواب» مرة أخرى وارتفع البلغم في حلقه:

- «هل وصل الأمر بك إلى هذا الحد؟ سوف أصدر أوامرى بتجريدهم من ثيابهم جميعا وجلدهم بالسياط.. انتظري وسوف ترين... تدافعين عنهم أيتها البغى؟ اخرجي من هنا فورا واسحبي معك هذا النغل..! »

انفجرت «ريزيا» : «يبدو أنك قد فقدت عقلك، أيها العجوز الخرف، الفاسق، الذي لم يترك امرأة.. حتى ابنته...»

صرخ «نواب» : «ليتني أستطيع أن ألطمك على وجهك لوقاحتك..»

- «ولماذا لاتحاول؟»

كان في صوتها ما أثار القلق بداخله. أرى يديه ترتعشان وشرايين رقبته منتفخة وتنبض بقوة. سمعته يقول لنفسه: «يبدو أن شيئا ما قد أصابها. هذه البنت تلقى في قلبي الرعب.. ولكن لاينبغي أن أنهار هكذا... بسرعة!»

ثم واصل كلامه إليها: «أعرف أنك قد أُصبْت بالسُعار... هل لأنك لم تستطيعي أن تحضري جنازة عشيقك؟»

قالت: «لا... كان يمكن أن أذهب بالرغم من أحداث الشغب لو أنني كنت أريد... ولكن حضور الجنازة ليس هو الطريقة الوحيدة لوداع روح مغادرة. لم أذهب لأنني أريد أن أنقذك من الموت، كان يمكن أن تكون هناك جنازة أخرى...»

قال والقلق يكسو جبينه: «وكيف عرفت ذلك كله؟»

- من «ممتاز»

استدار ناحية «بابار» الذي كان يتابع المبارزة بينهما:
- «هل سمعت ذلك أنت أيضا؟»
- «نعم يا أبي..»
- «إذن فقد اتفقتما عليَّ، لماذا لاتقتلاني وحينئذ يمكن أن تقتسما القصر بينكما؟!»

انفجرت فيه «ريزيا» : «صراع ديكة، احتفالات صاخبة مخمورة، نساء ورقص.. قصر هذا أم جحر أفاع؟! ليس أكثر من ذلك.. لانريد شيئا من ممتلكاتك، لماذا لا تعترف الآن بأن الكيل قد

طفح وأن الوقت قد حان...»

وأكمل «نواب» عبارتها الأخيرة: .... «لتموت!»

في نفس اللحظة وقع بصره على بساط عراقي معلق على الحائط المواجه، عليه عاشقان يشربان النبيذ تحت شجرة، قال وهو ينقل بصره إلى الأرض الغارقة في الدم.. «تجاور غريب للحياة والموت»، ثم حدق في صورة جده الأكبر المعلقة على الجدار الأيسر. الجد جالس على كرسي وثير وزوجته واقفة إلى جواره ترتدي السارى المطرز بالذهب.

قال نواب لنفسه: «ألا ينبغي أن يكون لي صورة كهذه؟ ولكن كم كنت أكره زوجتي! كما أن فكرة أن يقوم عشيق «ريزيا» برسمها في حد ذاتها فكرة قاتلة».

ألاحظ أن بقعة الدم التي تركتها الديكة على الأرضية قد أخذت نفس الشكل المخيف الذي كنت أراه في سقف غرفة المعيشة لدىّ. وفجأة ارتفع صوت ضوضاء في الخارج ويبدو أن الدهماء قد تجمعوا... خرجت بسرعة أستطلع الأمر. ترى هل بدأ التمرد؟ أمام ردهة الاستقبال كان هناك جماعة كبيرة من العاملين في «قصر جولشان»، رجال ونساء كلهم متذمرون مصممون على الانتقام. لاح بين الزحام رجلان قويان، أحدهما يمسك عتلة في يده والثاني فأسا. في ذلك المساء الصيفي، رأيت في ضوء القمر جمعا من وجوه برونزية، وعيونهم متجهة صوب ردهة القصر. لم يكن هناك أثر لـ«ذاكر محمد» في أي مكان، شعرت بالرهبة. كل همي هو سلامة «ريزيا»، ولكن ماذا يمكن أن تفعل روح من أجل إنقاذ شخص على قيد الحياة وماذا لو تحول هذا التمرد إلى شكل أكثر عنفا؟ ماذا لو حاول أحدهم التحرش بها؟ أسمع الآن طنينا في الهواء... فهل هي روح أخرى؟ ومن تكون هذه المرة؟

رفرف نحوى صوت هادئ: «السلام عليك ياسيدي»

– «من أنت من فضلك؟»

– «لن تعرفني ياسيدي.. أنا «محبوبة»... أقصد أنني روحها... لقد كنت أنا المسؤولة عن رعاية النباتات والزهور الموجودة في شرفة السيدة «ريزيا».

– «هل أنت ابنة عاملْ الحديقة؟»

– «نعم ياسيدي»

– «كنت أتوقع أن ألقاك في مكان ما هنا..»

– «أنا أيضا سمعت بموتك ياسيدي، وكانت «ريزيا» تفكر فيك طوال اليوم»

– «... ولكن طريقة موتك كانت مؤلمة جدا... روتها لي ليلة أمس...»

وهنا ارتفع الصوت غاضبا: «كانت جريمة بشعة، ومع ذلك ترك أهلي المغتصب يهرب، لمجرد أنه أبدى إعتذاره... كما لو كان قد كسر قطعة من الصيني.. ألم يكن من الواجب القضاء على الأب والابن معا؟! كلاهما مجرم ياسيدي!»

– «أنا أفهم مشاعرك، ولكن أليس العفو من شيم الآلهة؟»

– «لا ياسيدي... الشر مجرم خطر، لو تركته يهرب فقد يفعلها مرة أخرى.»

– «أليس «نواب سليمان» هو أصل كل الشر هنا؟»

– «بلا...! هل تعرف أنه حاول أن يتحرش بابنته ذات مرة؟ ابنته «ريزيا». نعم. ولكنها صرخت في وجهه وطردته من الغرفة.. لقد شاهدت وسمعت كل شيء من الشرفة.»

– «أعرف شيئا من ذلك»

– «أنا أعتقد أن «ريزيا» كانت تحبك.»

قلت وأنا أشعر بالحرج: «حسن! ولكن قولي لي يا محبوبة:

– «هل يمكن أن يلحق أهلك بها أي أذى؟ إنها على أية حال أحد أفراد عائلة «نواب» !»

– «لن يلمسها أحد. الكل يعلم أنها طيبة وكانت تساعدهم جميعا. إنها الشيء الوحيد النادر وسط حثالة تلك العائلة.»

– «الحمد لله... لقد كنت خائفا!»

– «لاتخف ياسيدي، إنه «نواب» فقط.. يريدون أن يتخلصوا منه هذا المساء!»

– «لايهم.. حتى لو نسفوا القصر وقتلوا «نواب»

– «ليتهم يتخلصون من «بابار» أيضا، ستكون تلك هي الطريقة الوحيدة لتصفية الأسرة..»

– «كنت أعتقد أن الإنسان يتناول هذه الأمور ببساطة بعد الموت... ولكن... اغتصاب في السادسة عشرة؟!»

قالت «محبوبة»: «الروح ليس لها عمر، أنا أعتقد ذلك، وأشعر بأنني ناضجة مثل أي امرأة كبيرة، مايعذبني حتى الآن هو أنه قد اغتصب جسدي وروحي... يالها من ذكرى مرعبة...! إنها شبح ثقيل يخيم على في كل مكان...»

ولكن، ألم تمر «ريزيا» بنفس جرح الإهانة والاغتصاب: والآن أدرك أن اثنين من نزلاء «قصر جولشان» كانا من ضحايا نفس الجريمة... فهل هو قصر مسكون بشيطان رجيم؟ شعرت برغبة شديدة في معرفة كيف حدث ذلك مع «محبوبة»... أليست ميزة الآن أن أعرف كل شيء من الضحية مباشرة؟ إن كل ما رآه الآخرون هو جسدها الميت.

الموت اغتصابا... تماما كما كانت نهاية حياتي... الموت غرقا!

سألتها: «كيف حدث ما حدث يا«محبوبة»؟ وإذا كنت تشعرين بحرج ما لاداعي للكلام..»

– «أي حرج ياسيدي، الأرواح لاتشعر بشيء من ذلك... أنا لست جسدا... سأقول لك كل شيء ياسيدي». وبعد لحظات أخذت تحكي:

– «كنا وقت الظهيرة تقريبا. وبينما كنت أقوم بتطهير الأرض من الحشائش الضارة خلف حجرة نوم «ريزيا» جثم شبح أمامي كأنه جذع شجرة مجتثة. استدرت خلفي لأجد «بابار» واقفا بجوار كتفي اليسري منحنيا على جسمي وعلى وجهه ابتسامة صفراء..

قال: «ألم يحن وقت الغذاء؟» قلت: «مازال أمامنا نصف ساعة ياسيدي.»

قال: «لابد أن يعرف أبي أن هنا من يعمل بجد وإخلاص، هل تعرفين يا«محبوبة» أنك متميزة جدا عن كل الذين يعملون هنا.؟»

قلت: «شكرا ياسيدي!»

– «لاشكر ياعزيزتي، أنت تستحقين زيادة في راتبك.»

«نظرت إليه ممتنة ثم واصلت اقتلاع الحشائش، راح يقترب مني أكثر وهو يبتسم، ثم داعب كتفي ومسد شعري وهو يهمس: «ألا تستحقين مكافأة خاصة على هذا الجمال أيضاً؟» كان يتكلم وهو يشير إلى عصفور على غصن قريب: «أنت مثل هذا الطائر الذهبي الجميل. قطيفة جسده في نعومة شعرك... احمر وجهي، «أرجوك ياسيدي لا تتصرف معي هكذا. لست سوى ابنة عامل بسيط وأعرف ماتود الوصول إليه، أنا لا أريد أي زيادة في أجري... وإذا قلت كلمة أخرى سأبلغ والدي..» كنت أشم رائحة الشراب المنبعثة من فمه وألمح وميضا خبيثا في عينيه.

قلت وأنا أنهض على قدمي: «اتركني أرجوك.. أريد أن أنتهى من عملي..»

«أي عمل ياحمامتي! لدي عمل آخر لك، عمل أكثر متعة من اقتلاع الحشائش، عمل ممتع لنا معا».. قررت على الفور أن أترك المكان، ولكن قبل أن أتحرك من مكاني كان قد وضع

يده اليمنى على فمي بقوة وجذبني باليسري خلف شجرة التين، حيث سد فمي بمنديل ونزع عني ملابسي. حاولت أن أصرخ ولكنه غلبني.

كان لعابه يسيل مثل كلب مسعور ويغرق وجهي كله. شعرت كأنني أهوى في الماء بينما يداى ورجلاى تحاول أن تدفع جسدي إلى السطح... وأنا في هذه الحالة بين الوعى والغياب رأيت رئيس الحراس وهو ينتزع «بابار» من فوقي ويقول: لن نتركك تفر بجريمتك .. ولن نترك أباك!»

بعدها رحت في غيبوبة وعرفت أنني قد مت.

عندما سمعت طنينا في الهواء، قلت، «لابد أن يكون طنين «ياما»

– «لاياسيدي.. كان ذلك ملك الموت..»

– «هكذا؟ وكيف وجدته.؟»

– «كان طيبا حلو اللسان..»

– «طبعا، فأنت صغيرة وبريئة.»

– «لا أعرف. قال شيئا عن «الأعمال» .. ولكن ماهو التناسخ ياسيدي؟»

– «وهل قال شيئا عنه؟»

– «نعم..»

– «حسن! الأعمال هي «الكارما» ، والكارما هي الميلاد مرة ثانية...»

– «هناك إذن حياة أخرى؟»

– «لماذا لا تنتظرين أسبوعين مثلا لترين كيف ستسير الأمور؟ هذا ليس وقته..»

أنهيت كلامي معها وأنا لا أعرف لماذا قوّتْ كلماتها من اعتقادي في التناسخ. ثم أدركت أنني كنت مستغرقا في الكلام مع «محبوبة» غافلا عن كل شيء آخر...

وعندما نظرت حولى رأيت أن الزحام الذي كان في الحديقة قد تلاشي! أين ذهبوا؟ وأين بالذات الرجلان المسلحان بالعتلة والفأس؟ ولماذا خيم الصمت على المكان؟ رأيت وجه القمر يحدق في قبة المبنى، عينان عاجيتان تدققان النظرا وأنف طويل مستدق الطرف، وفم مبتسم.. وجه يبدو عليه نفس التعبير المشؤوم الذي رأيته على تلة عثمان في ذلك المساء النكد..

وبينما أنا أرفرف فوق «قصر جولشان» وجدت أن الجمع كان قد تحرك خلف غرفة

«نواب»، بينما الرجلان المسلحان يقفان في رباطة جأش ووعيد عند باب جانبي صغير. بعد دفعة قوية للباب خلعته من مكانه، وصرخة مدوية هزت الهواء بشدة، اندفعت الجماعة إلى الردهة.. فز «نواب» مذعورا. وبينما كانت «ريزيا» متماسكة كان «بابار» يرتعد خوفا وهو يحاول الفرار نحو الباب الخارجي. صرخ فيه حامل الفأس: «الباب مغلق أيها الجرذ الجبان!» وكان يلوح بسلاحه في الهواء.. أما الرجل الذي كان يحمل العتلة فقال: «لن نقتلك أيها الفاسق، ولكن لابد أن تنتظر قليلا لترى مشهدا قصيرا...»

«بابار» يختفي وراء أخته التي تحاول أن تحميه بيدها اليمنى، وعندما رأيت ذلك خشيت أن تستثير هذه الحركة الجمع الثائر ضدها.. كل ذلك يحدث بينما «نواب سليمان على» الذاهل الصامت لايعرف أنه المستهدف الحقيقي.. كان يحدق في الرجلين المسلحين، عندما صاح الرجل الذي يحمل العتلة: «والآن إلى هذا الحفل القصير الذي أعددناه لتسلية «نوابنا». ثم قال وهو يدفع بالسلاح الذي يحمله نحو «نواب» الذي كان يتراجع خوفا: «أتريده مثل حفل صراع الديكة ياسيدي؟».

وتحت الثريا، كان «نواب» منكمشا يزداد شحوبا ورعبا، بينما الدوائر تحت عينيه وتغضن خديه تجعل وجهه يبدو كأنه قاع نهر جاف..

صاح رجل عجوز في ثياب رثة: «إن لم تقدم اعتذارك يا «نواب على بهادور» فسوف أنتقم لنفسي...»

نظر «نواب» إلى عامل الحديقة فوجد نفسه في مواجهة عينين حمراوين. أزعجته غطرسة صوت العامل ولكنه الآن لاحول له ولا قوة.. محاصر من كل اتجاه. استدار بوجهه إلى الحائط الأيسر وجالت عيناه بصورة جده الأكبر الجالس في خيلاء في حلته اللامعة على كرسيه المذهب...

شعر «نواب» على الفور بوهج دم أسلافه يسرى في شرايينه وأضاء وجهه للحظة..

تدخلت «ريزيا»: «أرجوك يا أبي، ولم لا ....» عينا «نواب» مازالتا على الصورة وكأنه لم يسمع ابنته بالمرة.. ثم قال: «وإن لم....»

كان ينظر إلى عيني عامل الحديقة كأن تلك النظرة الملكية يمكن أن تحرق الرجل..

خرج صوت من وسط الزحام: «سيمتزج إذن بعض الدم النبيل بدم الديكة!»

وعندما تقدم ذلك المتكلم، كانت صدمة «نواب» شديدة أن يرى سكرتيره «ذاكر محمد».

قال «نواب» وهو يطحن أسنانه: «خائن!»

- «كنت دائما تعاملني باحتقار يا «نواب صاحب»، وقد جاءت اللحظة التي أرى فيها رأسك في الأرض... ألا تود أن نقوم بشيه في الكونياك لعشاء كلبك المدلل ؟»

- لن أخفض رأسي يا «ذاكر»

لم يكد ينطق، حتى كان الرجل الذي يحمل الفأس قد جذبه نحو المنطقة الملوثة بالدماء وضربه على رأسه. صرخة وشهقة ثم اندفع الدم الحار من الجمجمة!

كانت «ريزيا» تتوسل: «أرجوكم!»

رد عليها الرجل الذي يحمل الفأس: «دعينا ننهي المسألة ياسيدتي. سوف تشكرين لنا ذلك لأننا نظفنا القصر!»

ثم تقدم حامل العتلة ليقف بقدميه على صدر «نواب» ويغرس سلاحه في رئتيه... ثم دفقة أخرى من الدم ليقع «بابار» مغشيا عليه خلف «ريزيا».

كان صوت عامل الحديقة يدوى تحت القبة: «يبدو أن المغتصب قد قضى نحبه أيضا!»

عندما انصرف الجمع يتقدمه القاتلان، كانت «ريزيا» تنظر إلى جسد أبيها الغارق في دمه، ثم تقدمت نحو الأريكة التي كان يراقب منها صراع الديكة منذ دقائق قليلة، وجذبت الغطاء فوق الجسد.. في نفس الوقت كان «بابار» قد أفاق فتمائل على قدميه ببطء ليرى أخته راكعة في خشوع تصلي إلى جوار الجثة...

- «ارحمه يارب... غفرانك ورضاك.. هذا كل مايحتاجه الآن.»

وهنا تذكرتُ بعض عبارات من مسرحية كنت قد شاهدتها في الصيف الماضي في «نادي النظام»:

«اللعنة تتكاثر في الظلام

تتبع منطقها الخاص،

تختار لحظتها المناسبة

لكي تدفعك نحو الاستسلام..

ودائما تنكر الكفارة..»

وقبل أن أغادر الردهة نظرت إلى بركة الدم حول جسد «نواب». كانت قد تجلطت واتخذت شكلا.. كانت في البداية تشبه «البازيليسق»، ذلك الحيوان الخرافي الزاحف الذي

يحمل وجه ضفدعة ومخالب نسر وذيلا يتلوى مثل ذيل التمساح..

بعد ذلك اتخذت شكلا آخر تماما يشبه تلك البقعة الرطبة في سقف غرفة نومى.

عندما خرجت من الردهة رأيت القمر....

عيناه جليد مخيف، أذناه الكبيرتان تتدليان في كسل.. ذقنه مقوسة مثل سيف أعجف، وابتسامة محنطة على وجهه كأنها تحتقر كل مايجري على الأرض من أحداث مؤسفة وتسخر منه..

-١٠-

كنت قلقا على «ريزيا» ، بالرغم من أن «محبوبة» أكدت أنها لن يصيبها مكروه. ثم ماذا لو حاول القتلة وهم في ذروة غضبهم أن يقتلوا «بابار» أيضا؟ أليس هو الذكر الوحيد الباقي من نسل «علي»؟ كما أن «ريزيا» لوحاولت أن تتدخل لحماية شقيقها فقد تواجه بعض المتاعب.. لذلك كله قررت أن أعود إلى الردهة. رأيت «بابار» يقف إلى جوار شقيقته ممتقع الوجه شاحب الشفتين بينما هي مستغرقة في الصلاة، راكعة إلى جوار جثة أبيها فاردة كفيها أمامها تدعو الله طالبة رحمته.

سمعت «بابار» يلعنها في سره: «لماذا لاتنهى صلاتها بسرعة، لو بقيتْ هكذا أكثر من ذلك فلابد أن أهرب، لن يمسوها بسوء، فأولئك الجبناء يطلبون رأسي أنا.. يقولون أنني وقد اعتذرت لهم لن يمسوني بسوء.. ولكن متى كان لهم كلمة؟ اسرعي يا «ريزيا» أرجوك»... كان يرتعد وهو يفرك يديه يائسا بائسا..

عندما انتهت «ريزيا» من صلاتها قفز ليمسك بيدها:

- «هيا بنا، هذا المكان غارق في الدماء، يجب أن نختفى بعيدا هذه الليلة على الأقل.»

قالت:

- «وأين نذهب؟»

- «إلى أي مكان»

- «أنت خائف لدرجة الموت... أليس كذلك؟»

- «بلا»

- «لكنهم لن يؤذوك»

- «ومن يضمن ذلك؟»

صمت بينهما. جبهته تملؤها التجاعيد، سبابته اليمنى على شفتيه ويتحسس حلقه بإبهامه.

– «يمكن أن أطلب من أحد الأصدقاء أن يأوينا هذه الليلة... زميل دراسة في الكلية... هيا بنا!»

– «ولكنك لاتستطيع أن تطرق باب أحد في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل..»

– «سأتصل تليفونيا من الطريق.»

عيناها تمسحان وجه شقيقها، شاحب حتى الموت وشفتاه ترتعشان. قالت لنفسها: «إن لم نغادر القصر فورا فقد يسقط ميتا في أي لحظة. لكن... ألا يشبه والده؟ الجبهة العريضة... العينان الزرقاوان العميقتان.. نفس الفم الشهواني الأحمر.. والغريب أنه يثير في نفسي الامتعاض أيضا..»

ثم قالت بلامبالاة: «هيا إذن بنا..! إلى أي مكان..»

– «أنت خائفة؟»

– «بلا... متواطئة!»

نظر إليها مرتابا كأنها شريك في جريمة القتل، وتحرك نحو الباب الخلفي وهو يشير إليها أن تتبعه. كانت سيارته المرسيدس تقف بالقرب من الرواق فدفعها في المقعد الأمامى وقفز إلى جوارها وأدار المحرك. عندما ضغطت قدمه على بدّال السرعة أحدثت السيارة صوتا حادا فزمجر غاضبا...

«أولئك الأفيال الأغبياء! لماذا لايصنعون سيارات صامتة!»

قالت – «لكي تناسب اللصوص؟»

– «أسرعى يا «ريزيا» ، ماذا بك؟»

– «لاشيء»

– «أعجب لهدوء أعصابك.. هل كانت صلاتك نوعا من التمثيل؟»

– «لن أعلق على ما تقول...»

لم يكن هناك أحد من الحراس عند البوابة الرئيسية، وهذا أمر غريب. وكان «بابار» وهو يقود سيارته بسرعة خارجا من القصر يقول لنفسه: «ربما قد تجمعوا في مكان آخر يرسمون خطة جديدة.. على أية حال سنكون بعيدين عن أيديهم حالا..»

راحت السيارة تنهب الطريق عند «نامبالي» ثم انعطفت على طريق «شيراج» ثم على طريق «عابد» ثم إلى «تولجا بهاڤن» وكادت أن تنقلب وهي تنحرف بشدة عند إشارة المرور.قالت

«ريزيا» محتدة: «على مهلك! لا أحد يطاردك.. هل أنت متوتر الأعصاب لهذه الدرجة؟»

صوب إليها نظرة طويلة... باردة.. ثم أوقف السيارة بعد قليل وسار نحو كابينة تليفون على جانب الطريق، أما أنا ففضلت البقاء مع «ريزيا».

كانت تفكر «ليتني نصحته بالذهاب إلى أحد الفنادق... ولكن ذلك كان يمكن أن يكشف أمرنا. آه لو أن «رامى» كان على قيد الحياة... كان يمكن أن أطلب منه تدبير غرفة لنا في «نادي النظام»... كم أفتقده اليوم!»

بعد دقائق قليلة خرج «بابار» من كابينة التليفون تبدو عليه السعادة، قال وهو يتخذ مكانه في السيارة: كل شيء تمام... رغم أنني رويت لها معظم ماحدث... ولكن ليس كل شيء بالطبع! وهي التي عرضت أن تستضيفنا الليلة... كم هو لطيف منها!»

سألته «ريزيا» مندهشة: «فتاة؟»

– «نعم! زميلتي في الكلية... ألم أخبرك؟ تعيش في «بركات بويرا»... بالقرب من هنا..»

– «كنت تقصد بالصديق والزميل أنه فتاة؟»

– «وماذا في ذلك؟»

– «لاشيء..»

– «ولكنها ليست واحدة منهن! هي فتاة ذكية.. وفنانة.. رغم أنها جميلة!»

عندما أوقف السيارة أمام منزل صغير قرأت اللافته على بابه:

بريج بهادور ساسترى

طبيب

سألته «ريزيا»: «ابنة طبيب؟»

– «نعم»

– «عليك إذن أن تطلب منه في البداية بعض المهدئات.

حملق «بابار» في أخته: «وماذا في ذلك؟»

كانت سيارة «فيات» صغيرة تقف بالقرب من الرواق المحاط بأشجار جوز الهند، وقبل أن يدق «بابار» الجرس رأيت فتاة صغيرة تخرج من المنزل... بمجرد أن ظهرت في ضوء الكشافات

جفلت. «پراتيما» تقف أمامي مشعة بكل جمالها وروعتها. كان ذلك هو لقاؤنا الثاني في خلال يوم واحد.

قالت لـ«بابار» وهي تشير بيدها: «تفضل.! ويمكنك أن تترك سيارتك هنا..»

– «أختي «ريزيا» .. «پراتيما ساسترى» .

قالت پراتيما:

– «أسفت غاية الأسف لتلك المأساة، لابد أنكما في غاية الحزن»

قالت«ريزيا» :

– «كان أمرا فظيعا.. شكرا على أية حال على كرم ضيافتك!»

– «على الرحب والسعة!»

قال «بابار» :

– «لم أفكر في أحد سواك يا «پراتيما» .. شكرا.. ألف شكر..»

– «وأنا سعيدة لأنك فكرت بي!»

قادت «پراتيما» ضيوفها إلى غرفة الطعام حيث قدمتهما لوالديها.. كانت الأسرة بالفعل جالسة على طاولة العشاء ففهمت أن مكالمة «بابار» لابد أن تكون قد فاجأتهم أثناء عشائهم المتأخر..

وبعد أن دعوا «بابار» وشقيقته لمشاركتهم، وبعد عبارات العزاء المألوفة قال والد «پراتيما» : «ألا ينبغي إبلاغ الشرطة فورا؟ هذا هو الإجراء القانوني. ويمكن الاتصال بمركز العمليات من هنا إن شئتم.»

قالت«ريزيا» :

– «لقد فكرت في ذلك بالفعل، ولكن ربما فعلنا ذلك في الصباح. نحن الآن في غاية الاضطراب!»

كانت «ريزيا» تفكر: «آه لو علموا أن الشرطة لابد أن يسعدها ذلك لكي يحصلوا منا على المزيد من المال!»

قالت «پراتيما» : «دعهم أولا يتناولون شيئا من الطعام.. لابد أنهم يتضورون جوعا! مساكين!»

ثم أشارت إلى مابدا أنه بقايا ديك رومي وقالت:

- «ما رأيكما في شريحة من ذلك؟»

اضطربت «ريزيا»: «ياإلهي! إنه يشبه الديك الذي كان والدي يريده مشويا بالكونياك.. ذكرى مرعبة للصراع الدموى.. لو لمسته يدي فقد أتقيأ..!»

ثم استدارت نحو أم «پراتيما» وهي تقول: شكرا.. لانشعر أننا في حاجة لتناول شيء.. قد يكفي فنجان من القهوة. شعر «بابار» بأن كبرياءه قد جرح. «لماذا تتكلم نيابه عني؟» «كان بودي أن ألتهمه كله»

بعد تناول القهوة قامت «پراتيما» لتقول لضيفيها: «دعوني أصحبكما إلى غرف النوم. قادت «بابار» إلى غرفة في الركن بعد الشرفة الخلفية وهي تقول: هذه غرفة أخي، وهو بالمصادفة موجود في الخارج... يمكن أن تستخدم بعض ملابسه للنوم... وأي شيء تحتاجه...»

ولكنها عندما استدارت نحو «ريزيا»، سمعتُ «بابار» يقول لنفسه:

«ولست في حاجة إلى ملابس شقيقك ياحبيبتي، ليتك تعيريني بعض ملابسك لكي أتحسس فيها ثنايا جسدك... وإن استطعت أن تأتيني ليلا فقد لا نحتاج إلى ملابس بالمرة.. يكفيني عطر جسدك!.. ياإلهي! لقد نجحت في إزالة كل مخاوفي!»

ثم قال لها وهو يتباطؤ عند الباب: «شكراً!»

وسمعها «بابار» وهي تقول لشقيقته: «وهذه غرفة نومك.. إنها غرفتي ولكني يمكن أن أنام الليلة في مكتب والدى في الجانب الآخر من الشرفة.»

قالت «ريزيا»: أشعر بأنني قد سببت لك ارتباكا!

- «أبدا.. بالمرة.. فمكتب والدي مريح تماما مثل غرفة النوم، توجد به أريكة كبيرة وطاولات صغيرة وما يمكن أن أقرأه قبل النوم.»

وأنا أحوم في غرفة نوم «پراتيما» التي أصبحت غرفة «ريزيا» هذه الليلة وجدتها تشبه الاستوديو. مصباح جانبي مرتفع يشبه حامل الكشاف. على الحائط الأيسر مستنسخ من إحدى أعمال «رافائيل» وقناع من الورق المقوى يستخدمه الراقصون، وعلى قواعد النوافذ خلف السرير أجراس من الحجر. ثم مفاجأة أخرى. على الحائط المواجه لسرير «ريزيا» لوحة كبيرة مرسومة بالألوان المائية أظهر فيها بين مجموعة من الشبان والفتيات عيونهم جميعا مثبتة على وجهي وكأنهم يحاولون الإمساك بكل كلمة أقولها. أبدو في اللوحة بشعري مفروقا عند المنتصف وشعيرات بيضاء تغطي الفودين.. وبين المتحلقين حولي استطعت أن أتعرف على وجه جميل.. هو وجه «پراتيما».... الشفتان نصف منفرجتين كأنهما تنتظران قبلة... عندما وقعت عينا «ريزيا»

على اللوحة هتفت:

– «هذا رام كريشنا!»

خيم صمت قصير، عينا كل منهما تفتش وجه الأخرى. قالت «پراتيما»:

– «ألم يكن فنانا عظيما؟!»

قالت «ريزيا» – و«إنسانا رائعا كذلك.»

– «يبدو أنك كنت تعرفينه شخصيا»

– «ألم يكن شخصية عامة؟»

قالت «پراتيما» وعيناها تفتشان وجه «ريزيا»:

– «بالتأكيد، ولكن أقصد أنك ربما كنت تعرفينه!»

فكرت «پراتيما»:

– «من المؤكد أن هناك شيئا ما، وإلا لماذا تقول أنه كان إنسانا رائعا؟. رائع؟ إلى أي مدى كان ذلك؟»

كان تيار أفكار «ريزيا» ينساب في نفس الاتجاه: «من المؤكد أن هذه الفتاة كان لها أكثر من اندفاعة تلميذة نحو «رامى». انظري كيف تحدق فيّ. إنها لاتعرف أن كلمة واحدة مني قد تحطمها، ولكني لن أفعل.. فقد كانت كريمة معنا هذا المساء.»

قالت «ريزيا» لـ«پراتيما»:

– «نعم، قابلته عدة مرات في معارض فنية وحفلات اجتماعية.. وأنت.. كيف عرفته؟»

تنهدت «پراتيما»: «كان لقاء قصيرا، التقيته مرة في الحفل السنوي لجمعية الفنانين الشبان.. ولم أره بعد ذلك.»

– «تقصدين هذه اللوحة المائية؟»

– «نعم»

– «رسمتيها من الذاكرة؟»

– «نعم»

– «جميلة .. ويبدو أنك استطعت أن تلتقطي جوهر الرجل!»

قالت «براتيما» ووجهها يحمر خجلا: «شكرا!»

– «ليته كان معنا هذه اللية، لاشك أنه كان سيعجب بما رسمت»

– «كان الحلم تحقق!»

هذه المرة ران الصمت طويلا حيث كانت كل منهما تحاول أن تستحضر صورتي بعين الخيال.

ثم قالت «ريزيا» همسا: «أريد أن أسألك عن شيء..»

–«ماذا؟»

– «هل كنت على علاقة حب مع «رام كريشنا؟»

وعلى الفور جاءت الإجابة: «ومازلت!»

ثم أضافت بينها وبين نفسها: «هكذا انتزعتها مني.. ولكن ما الداعى لأن أكذب؟ لن يؤلمني أن تكون هذه المرأة أيضا تحبه. وما الداعي لأن تحتكر امرأة واحدة رجلا؟! ألم يكن ذلك مافكرت فيه ذلك المساء في الحفل؟ ما كان يهمني لو أن «رام» أحاطت به دستة من النساء. مشكلته وليست مشكلتي!»

لم يكن هناك رد مباشر من «ريزيا» التي ظلت تحدق في وجه «براتيما». ولكنها كانت تفكر بينها وبين نفسها:

«آه لقد خرجت به، ولكني لست غيورة من هذه الفتاة الصغيرة. بالعكس... أنا أشفق عليها.. لو قلت لها الحقيقة لانتفضت السجادة من على الأرض وعرقلتها!»

قالت «ريزيا» «ولكنه ميت الآن!»

– «وما الفرق.؟ أنا أشعر بوجوده طول الوقت»

– «إنه هنا... الآن...»

–«ماذا؟»

– «ربما أبدو حمقاء!»

قالت «ريزيا»: «لا... أنا أفهم ما تقصدين.. هل ذهبت إلى جنازته؟»

قالت «پراتيما»: «ذهبت إلى منزله هذا الصباح، وكان عليَّ أن أحضر جنازة أخرى ولكن لم يحدث.. كان اليوم كله جنازات...»

سألتها «ريزيا»: «تقصدين أعمال الشغب في المدينة؟ كان هناك كذلك العريس الذي لقى حتفه في الموكب... قرأت عن الحادث في صحيفة المساء...»

– «لااليت ديوب»

– «كنت تعرفينه؟»

قالت «پراتيما»: «تلك قصة أخرى.»

وأخذت شهيقا عميقا.. كان «لااليت» يحبني، كتب لي رسائل حب جميلة، كان يرى النجوم في عيني والقمر في وجهي والحمائم في يدى ويسمع موسيقى الكون في وقع خطاي! وذات مساء ظهر في حفل موسيقى مع فتاة! جيتاره وصوتها! بعد ذلك توقف عن لقائي.. الشيء الذي سمعته عنه بعد ذلك هو خبر خطوبتهما.. وهكذا ترين.. كان شابا عجولا لم يكبر بعد على مراهقته..»

قالت «ريزيا»: «أرى أنك كنت أكثر نضجا منه.»

– «لا..... لم أقصد ذلك..»

ثم قالت وهي متجهة نحو الباب:

– «ولكن كيف تركت نفسي أثرثر هكذا، وأنت في حاجة للراحة بعد عناء هذا اليوم الطويل؟!»

– «لا «ياپراتيما» أنت لاتقدرين مدى سعادتي في الكلام معك.. هذا بالضبط نوع الشراب الذي كنت في حاجة إليه الليلة....»

– «شكرا! ولكن هل ذهبت إلى جنازة «رام»؟»

– «لا!»

بدت الدهشة على وجه «پراتيما»: «هذه امرأة تدعى أنها تعرفه جيدا ومع ذلك لا.....»

فكرت «ريزيا»: «هكذا..! ألم أسترضها بنصف الحقيقة؟ كم هي مريحة أنصاف الحقائق أحيانا. ثم ألا تستحق ذلك؟ ليس من أجل كرم ضيافتها فقط.. بل ولأنها خففت عنا عناء ذلك المساءالكئيب..

ثم استأنفت «ريزيا» كلامها إليها:

«انظري يا «پراتيما»، بمجرد موت الإنسان ينتهي الأمر. لابد أن يعود المرء إلى الأحياء... الحي أبقى من الميت.»

– «هل تشعرين بنفس الشيء نحو والدك؟»

– «ولم لا؟»

– «أفهم الأمر.. على أية حال لابد أن أتركك لتستريحي الآن!»

سمعتها تفكر لنفسها وهي منصرفة:

«إذا كان المرء لايمكن أن يؤمن بالمجهول، بغير مايراه، فمعنى ذلك أنه لا وجود لإله. وهاهي عائلة على... الضحلة تماما.....»

كنت على وشك أن أطير عائدا إلى البيت سعيدا لأنني مازلت محبوبا ومفتقدا، عندما رأيت «بابار» خارجا من غرفته ومتجها بهدوء نحو غرفة «پراتيما».. أقصد نحو مكتب والدها. وبعد تردد قصير أمام الباب أدار المقبض بيده اليمنى وتسلل على أطراف قدميه. ماذا في ذهنه ياترى؟

عندما تبعته رأيت «پراتيما» مستلقية على الأريكة تغالب النعاس وفي يدها كتاب.. وفي الضوء الخافت لشمعة قرنقلية اللون، يتراقص في مزهرية من زجاج شفاف كانت جميلة نائمة تشبه ملاكا تحيط به هالته المقدسة على سرير من سحاب.

وللحظات، كانت عينا «بابار» تمسحان وجهها الساطع في ضوء الشمعة، ثم جلس ساكنا بجوار الأريكة بالقرب من قدميها.

–«پراتيما».

كانت غارقة في النوم، تتنفس في هدوء..

– «پراتيما»..كرر نداءه وهو يلمس قدمها اليسرى التي تبدو كأنها منفصلة عن جسدها طائرا حياً طليقا.. وفجأة انتبهت خائفة.

– «من؟»

– «أنا»

كانت قد عرفت صوته، طردت النوم من عينيها وأطفأت المصباح الموجود بجوار السرير،

وانكمشت متباعدة عن ذلك المتطفل

- «ماذا تفعل هنا؟»

عيناها تقدحان بالشرر ووجهها غاضب، وكان «بابار» يشعر بالاضطراب.

- «آسف لهذا التطفل، سمعتكما تتحدثان طويلا في الغرفة المجاورة.»

- «وهل كنت تتنصت علينا أيضا؟»

- «لا... ولكن دعيني أشرح لك الأمر.. لقد سمعت وقع خطواتك في الشرفة، فتصورت أنك لم تنامي بعد.»

قالت بصرامة: «عم تتحدث يا «بابار»، اخرج من هنا فورا وإلا...»

- «أرجوك.! اعطني دقيقة واحد، أود أن أقول شيئا..»

- «قله بسرعة وانصرف..»

- «كنت أشعر بالوحدة الشديدة في غرفتي، كان كل شيء يبدو مخيفا ففكرت أن أجئ لكى أتكلم معك قليلا.. هذا كل مافي الأمر.»

صرخت فيه: «هل جننت؟ لماذا لا تذهب لتتكلم مع أختك؟. فلربما كانت تشعر بالوحدة هي الأخرى..»

- «أعتقد أنها نامت.»

- و«أنا أيضا دعني أقول لك شيئا... عندما اتصلت بي تليفونيا كان ينبغي أن أقول «لا» فورا.. أنا أعرفك جيدا، كل من في الكلية يعرفك.. ولكنك كنت مع أختك وفي ظرف صعب.. ظرف مأسوى.. لم أجرؤ على أن أخذلك ولذا اقنعت والدى بأن يسمح لك بالمجئ.. على أية حال.. هل تغادر الغرفة فورا بعد أن قلت مالديك؟»

- ولكني لم أقله بعد «يابراتيما»، شيء أكتمه في صدرى وكنت أريد أن أبوح به طوال الشهورالماضية..»

- «وماهو...؟»

- «أنا أحبك.. وهكذا كنت دائما..»

انفجرت «براتميا» في الضحك..

- «ولكني لا أحب الأطفال.. وكفي كلاما من هذا النوع. ولو بقيت هنا دقيقة أكثر من ذلك فسوف أطردك من المنزل... أرجوك لاتستفزني!»

كانت عيناه وهو ينهض ماتزالان معلقتان بوجهها، وسمعته يقول لنفسه: «يالهذه النار! لو لم يكن منزلها لقفزت إلى فراشها حتى ولو صرخت أو استغاثت.. هكذا هن دائما.. ثم ألا يضاعف ذلك من الإثارة؟! ليتها قامت عارية من فراشها لتطردني من المنزل...»

ثم قال بضعف: «سوف أخرج.. ولكني أقولها مرة أخرى.... أحبك يا «پراتيما»....»

- «اذهب وقل ذلك لأختك.. ربما كانت تعرف عن الحب أكثر مما تعرف.»

وبينما هو يتجه صوب الباب نظر خلفه وقال: «إن الجمال لابد أن يكون معطاء وليس شحيحا... سوف أحسد دائما الرجل الذي تحبين وأغار منه... ليتني أقابله..»

- «ربما لن تراه أبدا... والآن.. هل....»

بعد أن خرج إلى الشرفة كان يفكر: «كنت جبانا، أفلتُ لحظة ذهبية من يدي... أراهن أنها كانت سوف تستمتع بذلك... بالضبط كما حدث مع «محبوبة»... حتى ولو دفع والدي حياته ثمنا..»

لم أكن أعرف أن هناك مفاجأة أخرى في انتظاري. وجدته يتجه نحو غرفة «ريزيا» بدل أن يعود إلى غرفة نومه، وهنا أيضا تردد لحظة أمام الباب كأنه يفكر في أمر يشغله... ثم تسلل إلى الداخل وأنا أتبعه...

من تنفسها العميق أرى أنها غارقة في النوم. كم تمنيت أن أعود جسدا لأنزلق إلى جوارها في الفراش. بعد أن استمعت إلى أفكارها وهي تتحدث طويلا مع «پراتيما» شعرت بشيء ما يلمسني من الداخل. ليتني أستطيع أن أستمع إلى أحلامها أيضا.. ولكنها غارقة في نوم بلا أحلام. مسكينة! كان المساء الأخير مرعبا بالنسبة لها...

وأنا وسط هذه الدوامة من الأفكار نسيت وجود «بابار» في الغرفة، ثم لاحظت أنه بعد أن تحسس طريقه في الظلام وجد أمامه مقعدا فجلس فيه..

ثم تردد همسه في الغرفة الساكنة: «ريزيا!»

ترى ماذا يريد هذه المرة؟ فورا، أحدث السرير صوتا وامتدت يد «ريزيا» تبحث عن المصباح الخشبي المجاور.. وفي الضوء المباغت، بدت عليها الدهشة.

- أنت يا «بابار» ؟

– عفوا يا «ريزيا»

– «كيف جئت إلى هنا؟»

قال متلعثما: «لم يكن الباب مغلقا بالمفتاح، فتصورت أن بإمكاني أن أدخل.. لم أستطع أن أنام..»

رمشت عيناها عندما وقعت على اللوحة المائية المعلقة أمامها.. وسمعتها تقول لنفسها:

– حسن يا «رامى»، لقد نمت جيدا لأنني أعرف أنك معي هنا. أمر غريب! أنت على الحائط وأنا هنا راقدة على السرير... بعيدة عنك جدا... إلا إننا كنا معا هنا في الغرفة.. أليس كذلك؟»

ثم سألت أخاها: «هل تفكر في أبيك؟»

– «نعم.. هذا جزء...»

– «ولكن الأمر انتهى، لابد أن تسير الأمور وتفكر في ترتيب كل شيء..»

ثم أضافت بعد لحظات: «الآن.. وبما أنك ستصبح رجل البيت فلابد أن تحترم نفسك! أتفهم؟»

– «ولكن هل انتهى الأمر فعلا؟»
– «هل أنت قلق بسبب عامل الحديقة والآخرين؟»
– «ليس بالضبط، بل هناك شيء آخر...»
ثم استطرد بعد أن نظر نحو الأجراس الحجرية فوق قاعدة الشباك:
«لقد تورطت في خطأ منذ دقائق...»
–«ماذا؟»

– «دخلت غرفة نوم «پراتيما»، لم أكن أقصد أن... كنت أريد فقط أن أتحدث معها قليلا..»

– «تصرف غريب! تدخل غرفة نوم امرأة في الليل لكي تتحدث قليلا؟ ولكن «پراتيما» لابد أن تفهم الأمر... بعد مساء مرعب كذلك لابد أن يتصرف الإنسان هكذا..»

بعد قليل، تجهمت ملامحها وكأن فكرة أخرى قد طرأت عليها، ثم سمعتها تفكر: «ربما كان يكذب، «بابار» ليس بهذه البراءة. ربما استيقظ فيه المغتصب مرة أخرى. وفي هذه الحالة لابد أن يعرف أن «پراتيما» ليست «محبوبة»... «پراتيما» عقلها ناضج بينما هو لم يتخط مرحلة المراهقة. كما أن هذا الانتهاك الفظيع لواجب الضيافة يعتبر خيانة كبيرة. أهكذا بسرعة بعد

مقتل والده؟ هل فقد رشده؟»

ثم قالت له بحدة:

- «بابار» قل الحقيقة!»

- «ألا تصدقينني يا «ريزيا» ؟ ألا تثقين بكلامي؟»

- «كلامك؟ على أية حال، ماحدث حدث بينك وبين زميلتك في الكلية...

لكن لماذا جئت إلى هنا، لتتكلم أيضا؟ أهذا وقت مناسب؟ نحن في منتصف الليل تقريبا ولدينا أشياء كثيرة لابد أن ننجزها في الصباح.. لا أثق أنهم حتى سوف يتركونا ندفن والدنا بطريقة كريمة. الأفضل أن تذهب إلى غرفتك وتحاول أن تنام.»

ولكن «بابار» هز رأسه وظل جالسا في مكانه. عيناه تجولان في اللاشيء وسمعته يقول لنفسه: «ليتني أستطيع أن أتظاهر بالدوار، حينئذ يمكنها أن تشرح الأمر لـ«پراتيما» وأبقى هنا أيضا. كلهن سواء.. يغضبن بسرعة، لايثقن بأحد.. متمنعات.. لاوسيلة للانتصار عليهن إلا بالحيلة.. أو عنوة.. انظر إلى «ريزيا» الآن.. لقد صنع غضبها شيئا بالنسبة لي. هل أنا بالفعل فاقد السيطرة على نفسي؟ هذان الكتفان العاريان المستديران... الناعمان... هذا الوجه الذي يشبه فلقة القمر... لابد أن يكون «رام كريشنا» قد ذاق كل جزء من ذلك الجسد الشهي! فتاة أحلام مصور! ولكن لو ذاق شخص جمال شقيقته يصبح الأمر سفاح قربي أو غشيان محارم!

لا أعرف من الذي زرع تلك المحرمات في العقل البشري!»

نظرت إليه «ريزيا» غاضبة:

- «لماذا لاتنصرف يا «بابار» ؟ لماذا تحدق فيّ هكذا.. أنا لا أحب ذلك!»

- «وماذا في ذلك؟»

- «أرى فيك شيئا من أبيك»

- «حسن! ألست ابن أبي؟»

- «أتمنى أن تكون... ولكن في النظرات فقط..»

- «دعي عنك ذلك يا أختي..»

- «إن لم تخرج الآن سأصرخ بصوت عال...»

- «ولم لا؟»

.... ولكنه اتجه صوب الباب وخرج في الحال.

- ١١ -

بعد أن صدمتني أحداث «قصر جولشان» ومنزل «پراتيما»، كنت مثل الخفاش الذي وجد نفسه محبوسا في غرفة شديدة الإضاءة، فراح يرفرف متخبطا بين كورنيش السقف والعوارض وقاعدة النافذة.. لايعرف أين يستقر!

وعندما طرت محلقا في الهواء كانت «حيدر أباد»- مسقط رأسي- تلمع مثل امرأة مزدانة بالجواهر... الشوارع غارقة في أضواء النيون والإشارات المرورية تضيء وتنطفيء. ارتفعت لكي أرى المدينة كلها من منطقة «سيد على شابوترا» القديمة خلف «شارمينار» حتى مدرج الطائرات الساطع في مطار «بيجومبت». كان سد «تانك» الممتد فوق بحيرة «حسين ساجار» فاصلا بين «حيدر أباد» و«اسكندر أباد» يلمع كأنه شريط من حرير. حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل كان هناك من يتجولون على الممرات الجانبية.. مثل حيوانات الحديقة التي تخرج من حظائرها الباردة للاستدفاء بحرارة النهار، جماعات كثيرة من البشر متجمعون حول محلات الأرصفة يتناولون الأطعمة الشعبية التي تقدم إليهم على أوراق شجر الموز، أو يشربون العصائر المثلجة.

لمحت فوق لوحة خشبية خلف أحد الأكشاك ملصقين سينمائيين، «فصل في الجحيم» و«شهر العسل»، وكنت سعيدا بهما فرفرفت مقتربا من الجسر لأنظر إلى البحيرة جيدا. كانت المياه الجارية تخلب لبي دائما في البحار والأنهار... ولكن ليس في البرك والمستنقعات التي تشبه الطيور الحبيسة في الأقفاص.. مستسلمة ومقموعة.

كان نهر «حسين ساجر» قد عاد حيا بمجيء الرياح الموسمية وكانت مياهه تهسهس وتدوّم كأنها مياه بحر متلاطم، كما كانت انعكاسات مصابيح أعمدة الإنارة حول حدوده تلمع تحت الماء كأنها موكب لحملة الشعل،وهذا أنا أواصل مراقبة المنظر وأشعر بالهدوء بعد هذا اليوم المليئ بالكوارث..

أرى رجلا عجوزا يجلس وحيدا على مقعد في ركن بعيد، يمسك بعصاه ذات المقبض العاجى بين رجليه متشبثابها، في وجهه شيء ما يحيرني.. نظرة عميقة، عيناه، طرف أنفه، شفته العليا.. كلها مركزة على فكرة بعيدة غامضة، وعلى محياه ترتعش ابتسامة سخرية مبهمة. كان الرجل بين لحظة وأخرى يدير مقبض عصاه أو يدكها في الأرض دكا كأنه يريد أن يحدد فكرة بعينها ويقبض عليها بيقينه. آه! لو كنت حيا، لما ترددت لحظة في تصوير ذلك الحكيم

العجوز لكي أمسك بتلك الابتسامة الساخرة الملغزة.

وعندما اقتربت منه سمعته يقول لنفسه «كفى.. كفي.! لاينبغي أن يتمادي المرء في كرم الضيافة، الإنسان العجوز غريب، بوصلة مكسورة، يحيا في منزله وغير مرغوب فيه ولايهتم به أحد. حان وقت الرحيل. لقد سمئتني «ناڤنيت» وكذلك «برابها». أعمالى لابد أن تكون هي السبب، ليتني عنيت بأبي في شيخوخته.. لقد تركته يذوي وإن كنت لم أسيء معاملته.»

«حسن!بعض الناس ينجح عن طريق الموت. أولئك الذين يمشون مدججين بقسوتهم فوق جثث القتلى نحو مجدهم الخاص. مثل ابنى. لقد أصابنى الاضطراب هذا الصباح عندما وجدته مبتهجا لموت «رام كريشنا». قلبه جلمود صخر. سمعته يقول لـ«برابها»: أنه –كرئيس جديد– سوف يعيد تشكيل مكتبه ويدعم سلطانه. إلى غير ذلك. ربما أعادوا ترتيب غرفتي أيضا بمجرد أن أذهب، وكلما أسرعوا في ذلك يكون من الأفضل.»

«ليت الموت كان سهلا، أو بالإمكان الوصول إليه مثل الحصول على قطعة شيكولاته أو حجز تذكرة للمسرح.. مسرح المجهول. ولكن.. حتى هنا أيضا يتدخل القانون عندما يقضى بأن الانتحار عمل غير قانوني وبالتالي فهو يستحق العقاب مثل أي جريمة أخرى..»

«يقول المجتمع «لا تفعلها»... مثلما يكتب الصيدلي بالخط الأحمر محذرا «خطر... يحفظ بعيدا عن متناول الأطفال».

«وفي النهاية يبقى للمرء شيء مثل هذه البحيرة أو مسار سكة حديد خاص، عندما لا تكون لديه قوة كافية لكي يتسلق برج الساعة أو نقودا كافية لكي يشتري جرعة زائدة من الحبوبالمنومة.»

هذا إذن والد خليفتي يفكر في الانتحار. وبينما دُفعْتُ أنا دفعا لكي ألقى حتفي، هنا شخص يود أن يفعلها بنفسه، رغم أن «ياما» قد يدّعِي أن الرجل كان يحاول أن يقتل نفسه بناء على طلب منه.

ثم قام الرجل من مكانه وانحني إلى الأمام وراح يحدق في البحيرة. سمعته يقول لنفسه:

«وهكذا سأهوى إلى الأعماق المليئة بالطين. سوف أدلى نفسي ممسكا بكدية من العشب إلى أن تشدني المياه إلى أسفل. النهاية».

تملكني الخوف. ليتني أستطيع أن أنادى أحدا ليمنعه من ذلك. تذكرت كيف كنت أتمنى أن ينقذني الشرطى الذي كان يسير على الشاطئ..

ولكن الرجل استدار فجأة ونادى عربة «ريكشا» وهو يقول لنفسه: «لا... ليس هذا المساء.

الجو شديد البرودة اليوم. ربما غدا. يمكن أن أفعلها في أي وقت آخر.»

آه! إنه الخوف من الموت. ومع ذلك يصف المجتمع الانتحار دائماً بأنه عمل جبان. ألا يتطلب شجاعة نادرة وإرادة صلبة لتنفيذه؟

فكرت في ذلك الضعيف الذي هرب من الموت، وفكرت في أبي الذي كان يريد أن يرقد مكاني عل المحرقة.

غيرت خططي. قررت أن أعود إلى المنزل حيث والدي. وهذه الفكرة في حد ذاتها مريحة لي.

عندما حوّمْتُ في أجواء غرفة المعيشة رأيت شمعة ومصباحا زيتيا مشتعلان عند البقعة التي كان جسدي مسجى فيها قبل أن يحملوه في السيارة.

المنزل هادئ، باستثناء الشخير الذي كان يأتي متقطعا من غرفة «مارى» وصوت مروحة السقف الضعيف. أبي وأمي نائمان في غرفة الضيوف. عاد بصرى إلى الشمعة وشعرت بالهدوء وأنا أرقبها تحترق ملقية ببقع من ظلها على الحائط.

كانت قد انتهت تقريبا. أصبحت بقايا شمع مصهور وذبالة قصيرة حية ولكن اللهب كان قويا وكله إصرار على الصمود أمام الموت الوشيك. أحدق في الشمعة وألاحظ التجويف الداكن داخل اللهب. البقعة الصغيرة من السكون التام في قلب الارتعاش النزق للنار. وفجأة سمعت شخصا يتحرك في الشرفة. هل هو لص؟ بعد لحظة رأيت «بيتر» ينسل خلسة داخلا غرفة المعيشة.

«أهلا كلبي الصغير..» شعرت كأنني أناديه «ماذا تفعل هنا؟»

سار «بيتر» مجهدا إلى ركن بالقرب من حوض السمك وهو يدور حول نفسه قلقا، ثم تحرك نحو البقعة التي توجد بها الشمعة المشتعلة وانكمش هناك، خطمه بين قدميه.. مثلما رأيته فى الشرفة الأمامية في الصباح تماما.

أستطيع أن أرى الأسى في عينيه الذابلتين.

تمنيت أن أسأله: «ماذا فعلت بنفسك ياعزيزي..؟ تبدو هزيلا»، ولكنه زحف مرة أخرى إلى الركن بجوار الحوض وسمعته يقول لنفسه:

«هنا أكثر أمانا، إنهم ورائي طوال اليوم، سيدتي و«رامو» يحاولان الانتقام مني الآن بعد ذهاب سيدي. إن من يكرهه يكره كلبه! مرتين حاولت التسلل إلى هذه الغرفة ولكن السيدة كانت تركلني بعيدا. ظهري يؤلمني. ربما مجروح. حاولت أن أصل إليه بلساني لألحسه... ولكنه

مايزال يؤلمني..

«ألحسه! من الغريب أن يثير ذلك تداعيات حزينة لدى.. بالأمس فقط وبعد أن كان سيدي قد ذهب إلى عمله، تسلل ذلك الرجل. حضنها من خصرها في الشرفة ثم بدأ يلحسها كلها... وجهها.. نحرها.. رقبتها.. ثم جذبها إلى داخل الغرفة... لم أر شيئا بعد ذلك حيث أغلقا الباب عليهما بالمفتاح!

كل ما سمعته هو أنها كانت تعوى مثل كلبة في القيظ.. لماذا يختفي الرجال والنساء خلف الأبواب المغلقة بين المغازلة ومطارحة الغرام؟ إنه مسلك جدير بالازدراء. نحن نمارس الجنس علنا. في الطريق.. في الحديقة.. تحت إشارات المرور.. بجوار محطة باص.. في أي مكان.. ماذا في ممارسة الجنس يستدعى أن يكون سرا؟ ما الذي يفعله أولئك البشر ولا نفعله؟

ولكنني أكره أن يلحس ذلك الرجل سيدتي ويأخذها خلف الأبواب... إلى غير ذلك! عار عليهم! سيقول الجميع أنني قد أصاب بالسعار لو رأيت «پولى» في وضع ممارسة الجنس مع أي كلب آخر... ولكن «پولى» ليست كلبة عادية.. إنها كلبة صغيرة ذهبية من سلالة نادرة.. ثم إنها في انتظاري في حديقة جارنا الخلفية..»

«ياللعجب..! من أي سلالة تلك المرأة؟ إنها تتصرف مثل الكلبة الضالة على أية حال. وأنا واثق أن سيدي لايعرف شيئا عنها. ليتني أستطيع أن أحكي له ما رأيت... للأسف.. نحن لانتواصل سوى بالنظر وهز الذيل!»

«تمزقني فكرة أن أعيش مع هذه المرأة ومع «رامو». ماذا ينتظرني ياسيدي؟ أين ذهبت؟ ليس بالخبز وحده يحيا الكلب! نحن أيضا في حاجة إلى الحب والحنان والفهم.. وكنت تمنحني ذلك كله»

«مازالت أشعر برائحة جسدك هناك بالقرب من الشمعة، حيث رقدت لفترة قبل أن يحملوك. لماذا تركتني؟ كنت أشعر أنه قادم. سمها الغريزة.. رأيت الكارثة في عينيك ذلك الصباح عند الإفطار. حس النهاية! كنت تجلس مطرقا، معقود الجبين، شفتاك ترتعدان، أدركت أنك كنت تغلى بداخلك.. هل كان ذلك بسبب الخصام معها؟ من المؤكد أنكما تشاحنتما. ومع ذلك كانت يمكن أن تداعبنى قليلا.. ولكن.. لاكلمة.. لا لمسة على ظهرى.. كنت أرقد منطويا على نفسي بجوارك بالرغم من الشمس القوية.

رأيتك تقوم غاضبا ومرتبكا، صرخت في «رامو» وأخذت سيارتك ومضيت. «أي فأل سيء!» قلت في نفسي! واليوم عدت في سيارتك... ميتا! جذع شجرة اجتثته فأس. حسن! هذه نهايتي أيضاً.»

شعرت بالحزن الشديد. إذ بينما يظل وفاء كلبي كما هو لايهتز، كنت ذاهلا عنه طيلة اليوم.. أحوم هنا وهناك. وحيث أن شهادة «بيتر» قد أكدت شكوكي في خيانة «مارى»، قررت أن أظل بعيدا عن غرفتها خشية أن تدمرني أحلامها تماما..!

ربما كان من المؤلم أيضا أن أستمع إلى أحلام والدي التي لابد وأنها تدور حول موتي كذلك.

يبدو أن أفضل طريقة للاحتفاظ بهدوئي هي الانسحاب بعيدا عن جميع أهل منزلي، مثل تلك البقعة السوداء المجوفة الهادئة، الساكنة قلب اللهب. مثل السلحفاة. وفي نفس اللحظة هبطت عليّ بعض العبارات من «الجيتا»:

تسحب أرجلها الأربع تحت درعها في أمان..

تسحب حواسها الخمس الهشة تحت ترس الروح

بعيدا عن العالم

الذي قد يغير عليها!

ولحسن الحظ، على خلاف السلحفاة، كان قد بقيت لدى حاستان فقط هما السمع والبصر. ولكن ألم تسبب لي الحاستان مايكفي من دمار؟

هل أذهب إلى الشرفة لتمضية اللية مؤرقا أعد النجوم؟ ربما كان ذلك مهدئا لي... ينتظرني هناك تحت السماء.. مرة واحدة كنت قد جئت إلى الشرفة الخارجية، وهذه المرة كان ضوء القمر يتسلل عبر التعريشة وينتشر في مربعات عديدة على الأرضية الموزاييك مكونا نفس الشكل الذي رأيته ساعة الإفطار.. باستثناء أنه الآن القمر الشاحب وليس الشمس النحاسية التي ترشق أشعتها.. ومن بركة ماء بعيدة، كان يأتي صوت نقيق ضفدع قويا وعميقا، وعويل كلبة حزين ينبعث من الطريق، كأنها تدعو رفيقها أن يأتيها في ضوء القمر الصريح.. ربما كان عويل «پولى».. ولكنها لابد أن تعرف أن «بيتر» ليس في حالة تسمح له بممارسة الجنس هذه الليلة!

عندما قررت أن أقوم بزيارة مكتبي السابق لأعرف كيف يتصرف خليفتي، رأيت «ناڤنيت ديشپاندي» يترأس اجتماعا للجنة التنفيذية. المكتب أعيد طلاؤه وعلى الأرضية سجادة جديدة والكرسى الذي كنت أجلس عليه يواجه الآن نافذة صغيرة وليس النافورة الموجودة بالخارج. على الطاولة صورة عائلية في إطار من الفضة لزوجته وأطفاله الثلاثة، ولكن ماذا عن الرجل العجوز؟ هل رحل؟ كنت أتساءل بيني وبين نفسي.

قال «ناڤنيت» بصوت متعجرف: «أعتقد أنني واضح!» وبعد أن أطفأ سيجاره في منفضة من الأناميل، واصل كلامه: «.. ثم إنني مصمم على الدقة والانضباط والنظام الصارم.»

قاطعه «سودهاكار ريدى» : «هل تنوى أن تدير هذه الأكاديمية كمركز للفنون أم كوحدة عسكرية؟» .

تذكرت كيف كان «ناڤنيت» و«سودهاكار» يتصادمان دائما في الاجتماعات. «سودهاكار» لم ينس أبدا اتهامات «ناڤنيت» المستمرة له، والزائفة دائما، حتى وهو نائب للرئيس. وعندما كانت كلمات «سودهاكار» المتحدية تدوى في المكان، كان جميع الجالسين حول طاولة الاجتماعات يبتسمون مبتهجين.

أنا أيضا شعرت وكأنني أريد أو أقول «براڤو سودهاكار»! فهذه أول ضربة يتلقاها «ناڤنيت» من أكبر معاونيه. سمعته يقول لنفسه: ياإلهي! كيف سأواجه ذلك؟ لو «ألقيت الفوطة» الآن ستكون نهاية خدمتي! رد عليه «ناڤنيت»: «لابد أن تعتذر عن هذه الإهانة ياسيد «ريدي»» ، قالها وجسمه كله ينتفض غضبا. قال «سودهاكار» «أنت مخطئ ياسيدي» ، ولفظ الكلمة الأخيرة بطريقة ساخرة وعيناه تومضان: «الحومة عهدت إلى هذه الأكاديمية بمهمة ترقية الفنون، وبأن تتعامل مع مصورين ونحاتين وليس مع مجرمين. وهذا ليس أسلوب إدارة مؤسسة ثقافية. أما أن أعتذر فإن ذلك لن يحدث، وربما كان عليك أنت أن تتكلم مع زملائك بطريقة لائقة فيما بعد.. أتمني أن يكون كلامي واضحا» .

عندما كان «ريدي» يكرر كلمات «ناڤنيت» كان صوته يزداد حدة..

- «هل تكف عن الصياح ياسيد «ريدى» وإلا ...»

– و«إلا ماذا؟» قال وهو يلتقط مثقلة الورق من على مكتبه كأنه سيضربه بها على رأسه.

ثم سادت فترة صمت حيث كان كل واحد من الحاضرين ينظر بقلق نحو الرجلين المتواجهين، ثم استأنف «ناثنيت»:

– «لابد أن تتذكر أن «رام كريشنا» قد مات، وأنني سوف...»

قاطعه «سودهاكار»: «رام كريشنا لم يمت». كان يمسك بالقاعدة المسطحة لمثقلة الورق بيده اليمنى ويديرها.. ثم تركها تفلت إلى الأرض.

«مازلنا نشعر بوجوده بيننا ودائما سنتذكره.. بالنسبة لنا «رام كريشنا» لن يموت أبدا»

شعرت للحظة أن هناك من يفتديني. تمنيت لو أقول لـ«سودهاكار» أنني قد تأثرت جدا بكلماته... كان الموت قد فقد قسوته وأصبحت أشعر بالسلام مع نفسي...

ثم قال «ناثنيت» بصوت هادئ نوعا ما: «سوف أضطر لطلب نقلك إلى إدارة أخرى..»، وتناول سيجارا آخر من جيبه تركه معلقا بين أصابعه دون أن يشعله.. رد عليه «سودهاكار»: «ولم لاتحاول؟ إن تعييني هنا كان بموافق الأكاديمية الوطنية وهي مؤسسة حكومية وليست استوديو من أملاكك.. ثم إنك يجب أن تعرف أن مثل تلك القرارات لايتخذه فرد، بل لابد أن يكون بواسطة اللجنة بكاملها طبقا للوائح» ودون أن ينتظر تعليقه ضغط على الجرس الموجود على الطاولة: «فلنطلب من مدير المكتب نسخة من اللائحة.» قال «ناثنيت» وقد زالت الحدة من صوته: «لماذا تريد أن تثير كل هذه الجلبة؟ أتعتقد أنني لا أعرف اللوائح؟»

– «أنت؟»

– «لا تتكلم معي هكذا ياسيد «ريدي»، لقد تجاوزت كل الحدود!»

– «وأنت أيضا!»

– «في هذه الحالة لابد أن ألغي الاجتماع..»

– «وهذا من الأفضل لنا جميعا..»

ثم قام وخرج وخلفه الجميع، وتبعتهم أنا أيضا إلى الساحة الخارجية حيث تجمعوا مرة أخرى. كان «جولاب نابي» السكرتير المساعد أول من تكلم: «برافو!»

قال «بالاچي راو» نائبه: «ألا يستحق ذلك؟»

قال «سودهاكار ريدى»: «ليس سوى نمر من ورق.. كنت سأضربه على رأسه بمثقلة

الورق هذه...»

قال «سرينيڤاس سوامى» ضابط العلاقات العامة: «أكثر ما أحزنني هو أنه بدا مزهوا بنفسه بمجرد وفاة والده» . نظر «سودهاكار» إلى «سوامى» مدهوشا: «ماذا؟»

- «قفز في نهر حسين ساجار»

سأل «راو»: «انتحار؟»

- «يبدو ذلك»

سأل «نابي» : «هل قرأت ذلك في الصحف؟»

- «خبر صغير في صفحة الحوادث في «ديكان كرونيكل»»

قال سودهاكار: «ربما كان عليه أن يخفي الأمر كله.. مجرد فأر في بالوعة!»

وقلت لنفسي: «لقد فعلها الرجل العجوز إذن!»

كان الجميع يستعد للانصراف بعد انتهاء وقت العمل. ولكن المثير للدهشة ألا توجد أي إشارة على أن «ناڤنيت» سوف يخرج من مكتبه. هل مايزال تحت تأثير الإهانة؟ ولكن عندما عدت إلى غرفته رأيته جالسا مع «كيث كيشورى لال» . من أين هبط هذا الكائن؟ هل كان في انتظار «ناڤنيت» في غرفة الزائرين؟

قال «كيشورى لال»: «آثرت ألا أتكلم معك في ذلك أثناء الجنازة احتراما للميت.»

- «أنا أفهم ذلك...»

- «ولكني أتمنى أن تتولى أنت الأمر ياسيد «ديشپاندي»»

- «آسف! قلت لك قبل ذلك أنني لا أريد أن ألمس شيئا بدأه ذلك الرجل. أسلوبنا في التصوير مختلف تماما، ولا أريد أن يقترن إسمي بإسمه بأي حال.»

قال «كيشورى لال» مبتسما: «ولكنك خليفته، ألا تجلس الآن في نفس الكرسي؟»

- «لسوء حظي.. اتضح أنه سرير من الأشواك.»

- «حسن... يظل قلقا الرأس الذي يلبس...»

- «لا... ليس إلى هذه الدرجة في الحقيقة...»

«أنا أتمنى فقط أن أمحو كل أثر لذلك الرجل..»

ثم كان صمت. بعد ذلك قال «كيشورى لال»: «لا أعرف شيئا عن شؤون إدارتك، ولكني أحترمك كمصور عظيم..» وسمعته يقول لنفسه: «لامانع من منافقته قليلا!»

– «شكرا.. شكرا جزيلا..»

– «أعتقد أنك من اللطف والكرم لكي تساعدني، أنت تعلم أنني أضعت وقتا طويلا... ومبلغا كبيرا كذلك.. ليت موته تأخر أسبوعا أو أسبوعين!»

قال «ناڤنيت» لنفسه: «اللعنة! ليته مات قبل هذا!»

على الجانب الآخر كان «كيشورى لال» يفكر: «يتعاركان مثل الكلاب. هل يختلف الفنانون عن سواهم؟ لماذا لايعرف هذا الرجل أنه لاوجه للمقارنة بينه وبين سلفه؟»

قال «كيشورى لال» بصوت عميق وبطريقة رسمية: «حسن! والآن هل تريد أن ترسم لي صورة أخرى بأسلوبك أو بالشكل الذي تريد؟»

وجاءت الإجابة الصريحة: «أفضل ذلك؟»

– «كم؟»

– «نفس المبلغ الذي اتفقت عليه معه..»

قال «كيشورى لا» لنفسه: «يالجشع النفس!»

– «عشرة آلاف، نصفها يدفع مقدما..»

– «وهو كذلك!»

- ١٣ -

صباح آخر. كانت دهشتي بالغة عندما رأيت أبي وأمي في الشرفة الأمامية ومعهما حقيبة كبيرة ممتلئة عن آخرها وجرة من النحاس الأصفر مزينة بالورود. سمعت أبي يقول لها: مرتين تقريبا كاد أن يصيبني الانهيار وأسقط على الأرض بينما كنت أرش اللبن المحلى على رماده.. ردت أمي بنظرة حزينة، ثم اتجهت عيناها صوب الشمس وهي تتنهد!

- «لماذا لاتنتظرين أنت هنا وتتركيني أذهب بمفردي؟»

- «لا!»

- «هل ستتحملين؟»

- «نعم.. لابد أن أذهب معك... أرجوك..»

أدركت أن أبي لابد أن يكون قد تسلم رمادى من المحرقة عند الفجر عندما كنت أنا في الشرفة، وعلمت أنني لابد أن أصحبهما إلى «بينارس». أذكر أنني كنت قد ذهبت إلى هناك آخر مرة مع أبي في مناسبة غمر رماد عمى، ويومها قررت ألا أعود إلى مدينة الموتى تلك، ذات الشوارع والأزقة الملتوية.. وما فيها من قاذورات وضوضاء وذباب وبعوض!

ولكن هل يمكن أن أتجنب رحلتي الأخيرة؟

بمجرد وصول القطار إلى محطة «بينارس» قبل شروق الشمس، تجمع حول والديَّ جمع من الكهنة، كل منهم يحاول اختطاف جرة الرماد وهو يقول: «دعني أقوم بذلك ياسيدي».. ولكن أبي طردهم جميعا وسار نحو كاهن، كان يقف وحيدا في وقار بعيدا عن الزحام.

- «هل تتفضل بإقامة الشعائر من أجل ابنى؟»

- «هذا يشرفني ياسيدي»

- «كم؟»

- «أي شيء...»

- «هذا غير معتاد!»

- «... هكذا أنا ياسيدي»

قال أبي: «دعنا إذن نلتقي عند غوط* «أهاليابای» في العاشرة، بعد أن نكون قد استرحنا قليلا في أحد الفنادق.»

- «ستجدني هناك.»

وانصرف الكاهن. حمل أبي الحقيبة بينما حملت أمي الجرة وخرجا من المحطة يجران أقدامهما من شدة الإجهاد..

وحيث أن رماد عمى كان قد تم غمره عند نفس «الغوط» المتفق عليه، كنت أعرف المكان. لماذا إذن لا أطوف حول المدينة بعض الوقت بدلا من البقاء هنا مع أحزان أبي وأمي؟ وبينما أنا أثب متنقلا رأيت مدينة «بينارس» منبسطة من حولى بقباب معابدها الذهبية وأرصفة شوارعها المزدحمة بالكهنة والحجيج الذين جاؤوا من كل فج عميق، كنت أسمع طنين الأرواح التي كانت ترفرف مثلى في الفضاء تشاهد شعائر غمر أجسادها.

فكرت في نهر «الجانج» المقدس الذي يستقبل كل يوم أكداسا من الرماد ومع ذلك ينساب هادئا تحت ذلك الحمل الأسود الثقيل.. على مياهه الخمرية اللزجة تبحر القوارب صغيرها وكبيرها حاملة الثكالى على صفحته الفسيحة، بينما يلقى الأفراد برماد ذويهم ويلقى الكهنة بترانيمهم المقدسة. يبدو النهر من تحتى مثل طريق تجارية كأنها تنقل البضائع المهربة إلى العالم السفلي.

على امتداد ضفتيه، وبالقرب من كل غوط، كان يقف جمع من الحجيج يغمرهم الماء إلى الركبه، يحفنون الماء المقدس ويرتلون... وعلى مسافة قريبة يوجد عدد من الكهنة البراهمة كل منهم يجلس على مقعد خشبي مرتفع يعظ مجموعة من الناس الجالسين أمامه على الأرض وعلى جباههم علامات الكاستي**، وأجسادهم في المئزر الأصفر البرتقالي تلمع في شمس الصيف الشديدة.

اقتربت من أحدهم، كاهن قوى البنية كان يتحدث مع اثنين يجلسان معه على نفس المقعد..

---

* درج ينزل عليه الناس إلى النهر (المترجم).
** إحدى الطوائف الوراثية عند الهندوس (المترجم).

وبالقرب منه رأيت رجلا يلبس «دوطي» قذرا يطحن خلطة من مواد مختلفة متناثرة حوله: لوز، عسل نحل، زبيب، قرفة، حليب.. كأنه يعد شرابا مخمرا مقدسا للإله..

سمعت الكاهن يقول: «العقم لايجدى معه دواء أو جراحة.. »

قال الرجل: «نعم ياسيدنا»

- «أعمالك السابقة.. «الكارما» هي السبب وهذا كل مافي الأمر..»

- «نعم ياسيدنا.. صدقت.. لقد أنعم الله علينا بكل شيء آخر... عملي يسير سيرا حسنا!»

- «أي عمل!»

- «أنا أصدر التوابل والشاي إلى الشرق الأوسط، ولكن مافائدة ذلك كله وليس لنا ابن يرثنا؟»

وهنا تدخلت زوجته في الحوار: «هل يمكن ياسيدنا أن تبطل مفعول الآثار السيئة لأعمالنا السابقة؟»

عقد المعلم حاجبيه كأنه يفكر عميقا ورأيت وجهه مثبتا على وجه المرأة وسمعته يقول لنفسه:

«طازجة كثمرة جوز الهند الناعمة، ياإلهى! شفتان لوز مغموس بالعسل... وبطنها تحت السرة!.. وصدرها... آه..! كأسان من عسل وحليب... ليتني أشرب من هذين النبعين!»

ثم قال ولسانه يجري على شفتيه: «نعم ياعزيزتي.. ممكن! هناك يوچانا»* في كتابنا المقدس تحقق مثل تلك المعجزات.» وبعد أن صمت لحظة «سأعملها لك.. وسيرزقك الله بابن..» ثم رفع يده اليمنى كأنه يمنحها البركة بعد الصلاة. قال زوجها سعيدا: «بارك الله فيك ياسيدنا..»

وقالت الزوجة: «سنبقى مدينين لك إلى الأبد...»

افتر وجهه عن ابتسامة فبدا عريضا وقال:

«أنا مجرد أداة في يد الله، ربما يكون قد اختارني لكي أنقل لكما شيئا من عنده، أعرف أنها مشيئته.. التي لابد أن يسلم المرء نفسه لها..»

قالت: «صدقت ياسيدنا.. »

* آية تصلح رقية.

– إذن فلأبدأ «اليوچانا» في الحال... ثم راح يرتل:

«يا براچاباتي*

أيها الإله الخالق

ازرع بذرة في رحم هذه المرأة

اجعل الأرض المحروثة تعود إلى الحياة بسرعة

اجعل ابنا ينهض منها

كما يخرج طائر القرلى الرفراف من مجرى ماء رائق.

ارزقهما يا وهاب

فقد عقدا كل توكلهما عليك..»

وبمجرد أن انتهى من ترتيله استدار ناحية الزوج. « لقد رأيت كيف تضرعت طالبا البركة من «براچاپاتي» ، على زوجتك أن تكمل «اليوچانا» .

– «ماهو المطلوب ياسيدنا ؟»

– «غدا .. لابد أن تصوم من الفجر إلى الغروب. ثم تخرج بعد الغسق بمفردها إلى شرفة المنزل، تخلع عنها ثيابها تماما، تمسح جسدها كله بزيت البراهمى ثم ترقد على ظهرها على الأرض لكي تقوم «شاندراماتا» إلهة القمر بتدليكها من الرأس إلى القدم.. وتظل هكذا حتى منتصف الليل ثم تكسر صيامها..»

– «ستفعل ذلك ياسيدنا»

رأيت على وجه الزوجة نظرة ذاهلة. كأنها في عالم آخر.. كانت بخيالها نائمة عارية في الشرفة في ضوء القمر...

«ثم عليها أن تجيء إلى هنا غدا مساء بعد الغروب بساعتين.. تجيء بمفردها.. مفهوم؟ اليوچانا خاصة بالزوجة فقط وليس بالزوج. سأصلي لها مرة أخرى وأقرأ بعض الآيات وفي هذه المرة سأكون وحدى.. ولكن خلف معبد «شيڤا» ، قد يتطلب الأمر أن تبقى ساعة أو ساعتين..»

– «ستفعل ذلك أيضا ياسيدنا...»

* الإله الشمس خالق كل شيء ورب الأحياء الذي خلعه الإله «إندرا» عن عرشه.

ثم سأله وهو يبدو عليه االفرح: «كم ثمن هذه اليوچانا ياسيدنا؟»

تصنع الكاهن الغضب في صوته وهو يقول: «لاتتكلم عن النقود.. لست مثل غيري من الكهان، يمكن أن تقدم أي نذر.. ولكن بعد أن «تــ..حــ..مــ..ل...»

وبعد أن نطق الكلمة الأخيرة متقطعة، تبادل الزوجان نظرة سعادة واطمئنان. لو كان عندي الوقت لحرصت على رؤية كيف سيقوم «سيدنا» بتلك الشعائر العبقرية، ولكن انتباهي تشتت على صوت جلبة وضوضاء صادرة عن جماعة تنطلق مذعورة نحو قارب على شكل هيكل عظمي لحيوان ثديي بدائي، ومعهم كاهن ذو أنف مثل المنقار، مجمدة على وجهه الدهني ابتسامة شاحبة.

كان كل رجل يلف جسده في مئزر أبيض ويحمل في يده جرة من الخزف أو البرونز، كأنهم في رحلة بحرية مرحة، وعندما تحرر القارب من مرساه انفجر الكل منشداً *.

«هارى راما

هارى كريشنا

رادى شياما

كريشنا كريشنا

هارى كريشنا

راما كريشنا»

فكرت للحظة أنهم كانوا يرددون اسمى ولايتوسلون للإلهين العظيمين لكي تحل بركاتهما، وعرفت أن القارب كان يحملهم إلى مكان بعيد لغمر رماد أحبائهم الراحلين.

وعلى الضفة الأخرى من «الجانج» كنت أرى بعض التماسيح وهي تزحف فوق الرمال. على هذا الجانب ليس هناك غوطات ولا كهنة. رمال فقط، وتماسيح، ونسور، وأشجار نخيل. سمعت الساعة تدق العاشرة من معبد صغير تحت غوط «أهاليا باى» مباشرة. وعندما استدرت رأيت أبى يتحدث مع الكاهن الذي كان قد اتفق معه عند محطة القطار.المسرح إذن معد الآن من أجل المراسم الأخيرة الخاصة بي. ولكن أين تراها قد ذهبت أمي؟

هل ممنوع عليها أن تشارك في هذا الطقس أيضا لأنها امرأة؟ لماذا إذن تجشمت مشقة السفر من «حيدر أباد» إلى «بينارس»؟ هل كانت تريد أن تبقى بالقرب من رمادى أطول وقت

* ابتهال الخلاص العظيم للإله الأعظم (المترجم).

ممكن؟ هل هو تعلق بالبقية الباقية مني؟

تابعاً الرجلين حتى الغوط لاحظت أنهما بدل أن ينتظرا في الصف حتى مجيء قارب كبير، فإن والدي ركب قاربا يتسع لشخصين. لابد أنه قد رتب لإقامة مراسم مقصورة عليَّ وحدى. ورغم أننا كنا قبل الظهر إلا إن الشمس كانت شديدة الحرارة في السماء الخالية تماما من السحب. أشعتها تلمع فوق سطح الماء كأنها رماح تشق أحشاء النهر، ولمعانها ينعكس على بعض الجرار التي لم يكن النهر قد ابتلعها بعد.. وعندما أصبح القارب في منتصف النهر تقريبا نبه الكاهن أبي لكي يلقى بالجرة، ثم بدأ يرتل:

«هذه ليست النهاية

ولا كان الميلاد هو البداية

فالشمس ولدت قبل أول شروق لها

وسوف تبقى بعد الغروب الأخير..

الجاهل فقط هو الذي يحزن

على جسد الميت،

اللحم والعظام تتحول إلى رماد

لا دوام لوردة أو زهرة..

إلق بكنزك الأخير يارجل

في أمنا «الجانج»

وعد إلى السوق يا إنسان..

إنها دورة أخرى..

الرماد في الماء..

الموت في الميلاد..

ومن الموت ميلاد آخر

إلى أن تذوب اللحظة في الأبدية

ويمتزج النهر بالبحر»

كان صوت الكاهن هادئا ووقورا، ورأيت في عينيه نظرة تفكر عميق كما لو كانت تراتيله قد هزته من الداخل أيضا..

ولكن بمجرد أن انتهى من صلاته سمعت أبي يقول لنفسه: «إنها كلمات نبيلة.. مطمئنة للنفس... ولكنها تظل كلمات... مجرد كلمات... أنا لا أعرف حتى من أي كتاب مقدس هي، أم تراه قد ارتجلها؟ كيف يمكن أن يترك الإنسان عنه كل ذلك. ألا يغضب النهر حين يمتزج بالبحر؟ ألا يئن النهار عندما يذوى في الليل؟ ألا تطقطق الشجرة عندما تقطع وتسقط على الأرض.. تماما مثلما تنشق التربة عندما تخرج منها البذرة؟ نعم! أعرف كل ذلك. ولكن ما قيمة الراحة بالمعرفة عند لحظة الوداع؟

ثم أخرج والدي كيس نقوده وأعطى الكاهن أربعين روبية...

قال الكاهن: «هذا كثير...»

وأصر والدي : «أرجوك»

: «شكرا جزيلا»

: «كان ترتيلك مؤثرا..»

تنهد الكاهن: «غمرت بنفسي رماد ابني في الربيع الماضي» وكان والدي يحدق في وجه الكاهن كأنه يبحث عن شيء ما... ثم سأله:

- «وهل ساعدتك المعرفة على مواجهة ذلك؟»

- «لا!»

أصابني جو هذه المدينة التي يخيم عليها الموت بالاكتئاب، فتركت والدي وعدت إلى «حيدر أباد» وبي رغبة شديدة لرؤية «پيتر». وفى البيت سمعت «چوپال مينون» يسأل «رامو» وهما يقفان في الرواق: «كيف حال الكلب.»

فأجاب الخادم: «ليس على مايرام ياسيدى، يبدو أنه قد فقد شهيته للطعام تماما.»

- «وماذا ستفعل لذلك؟»

أجاب دون مبالاة: «لا أعرف!»

كان «پيتر» يرقد على الأرض في الشرفة الأمامية كتلة من الصلصال.. لاحياة بالمرة.. تقطر من عينيه الحزينتين مادة زيتية وهو يحاول أن يهرش برجله الأمامية اليمنى قملة كانت تسرح على ظهره المخملى. عظامه بارزة، ويبدو كأنه هو الآخر عبارة عن روح تحررت من الجسد، ولذا ظللت بعيدا حتى لا أدخل في أحزانه.

سأل «جوپال» : «وأين السيدة؟»

- «ذهبت لتقضي اليوم في قريتها «بولنجبالى»..»

- «بمفردها؟»

- «لا أعرف..»

شعرت بالخداع، فوالداها كانا قد ماتا من زمن بعيد، وليس لها أحد الآن في «بولنجبالي» ولابد أن أتعقبها عل نحو ما. هل تراها مع «چورچ» ؟ وأين؟

قبل أن أعرف مايدور وجدت نفسي أرفرف فوق «بولنجبالي» على الطريق إلى «فيچايا وادا»، ونتيجة امتداد أعمال الشغب إلى أطراف «حيدر أباد» كانت كل القرى حتى قلعة «جولسوندا» وبحيرة «جنديبت» تبدو هادئة، لكنه الهدوء الذي ينذر بسوء. وعندما حلقت فوق القلعة رأيت المنظر كله... لا أحد من البشر هنا تقريبا.. لا أحد سوى مرشد سياحي يجلس

وحيدا عند المدخل الرئيس للقلعة يدخن الشيشة.

ثم فجأة، لمحت سيارتي «الأمباسادور» الخضراء مركونة عند الإفريز خلف الجانب الشرقي من سور «جولكوندا»، وعندما وثبت إلى أعلى الدرج الطويل الملتف حتى القمة رأيت «مارى» جالسة مستكنة إلى جوار «چورچ» على لوح من الحجر الأسود في ظل أحد الأعمدة، وأمامهما في ضوء الشمس الحارق يجثم رجل عجوز يستعرض مهارة قردين لتسليتهما.

كان الرجل يصرخ وهو يوجه عصاه نحو القرد المعمم:

— «هيا يا «سردار» .. استمر.. لا تتوقف..» فوقف الحيوان على قدميه الخلفيتين ومؤخرته تلمع في ضوء الشمس كأنها جرح مكشوط.. كان في عمامته الصفراء وتنورته الزاهية القصيرة يبدو كالعريس الذي يتبختر على رأس موكب زفافه، وخلفه تخطر زوجته في تنورة برتقالية اللون مرصعة بقطع من المرايا الصغيرة ورأسها مغطاة بمنديل مثل عروس خجلي..

— «قبِّلها يا «سردار»! قبِّلها...» استدار القرد نحو رفيقته بسرعة ووضع يده اليمن حول خصرها ومد لسانه الأحمر ليقبلها. فقال صاحبهما: «وهكذا تصالحا مرة أخرى، وصارا في سعادة البلابل. »فضحكت «مارى».. وضحك «چورچ»... «كما ترين، «سردار» متقلب المزاج إلا إنه يحب زوجته كثيرا.. وبالمناسبة فإنه يقرأ الكف أيضا.. إنه قرد واسع المعرفة! ثم إنه قبل ذلك كله من سلالة أصيلة... سلالة الإله «راڤانا». فانفجر «چورچ» و«مارى» مرة أخرى في الضحك.

سأل القرداتي «مارى»: «هل تريدين أن يقرأ لك كفك ياسيدتي؟»

— «أنا.؟ لو لمسني أموت!»

— «لن يؤذيك ياسيدتي... «سردار» لطيف جدا مع السيدات، القرد لايستيقظ فيه إلا مع زوجته أحيانا وفي النهاية ينتهي بهما الأمر إلى صلح مثل العشاق... وكما رأيت الآن...»

— «أخاف أن يلمسني»

— «مدى يدك وأنا هنا بجوارك أيضا...» قالت وهي تشير إلى چورچ: «يقرأ كفه أولا...»

رأيت القرداتي يهز مقود «سردار»، وفي الحال اقترب القرد بشفتيه من أذن سيده كأنه يهمس له بسر..

— «حسن! سأقول لها... إنه يريد أن يقرأ كفك أولا ياسيدتي... يبدو أنه يستثار عندما يرى سيدة في تنورة.»

شعرت بالرغبة في أن أقول: تماما مثل «ناڤنيت ديشپاندي» عندما كان مستثارا أمام جسدي المسجي وهو ينظر إلى ساقي «مارى»!

احمر وجه «مارى»، وعندما فتحت كفها وهي خائفة نظر إليه القرد مليا، ثم استدار نحو أذن صاحبه.. قال لها الرجل: «هل كان هناك شخص مريض أو حدثت حالة وفاة أو ميلاد في الأسرة مؤخرا؟»

قلت في نفسي: «وهل تبقى هناك احتمالات أخرى؟» وقالت مارى: «نعم! حالة وفاة.»

– «قريب وعزيز؟»

– «نعم شخص قريب.!»

قلت في نفسي «ياإلهي! يالها من طريقة قاسية ومقتضبة للاعتراف بي». وعندما نظرت إلى وجه «سردار» أدهشني أنه كان يشبه الوجه البشري باستثناء ذلك الانتفاخ الشبيه بالجراب بين الحافة السفلي للأنف والشفة العليا ورأسه الضيق، هذا إلى جانب المخالب والذيل بالطبع! تساءلت بيني وبين نفسي، «ترى ماهي «الكارما» التي حولته إلى نصف إنسان ونصف حيوان على هذا النحو الساحر؟ عاد القرداتي يسأل «چورچ»: هل لديك أطفال ياسيدي؟»

– «لا!»

– «إذن هل تسمح لـ«سردار» بنظرة سريعة أخرى إلى كف السيدة؟»

وافقت «مارى» وهي تبدو مطمئنة إلى حدما هذه المرة.. ثم تقدم «سردار» وأحنى رأسه على كف «مارى» ثم عاد إلى صاحبه الذي قهقه عاليا..

سأله «چورچ»: «ماذا يقول؟»

– «لا ياسيدي، إلا هذا! «سردار» يخرج أحيانا عن حدود اللياقة... قليل الأدب. الحمد لله أن هناك مايزال الفرق الوحيد.. الذيل.. وإلا...»

قاطعته «مارى»: «دعنا نعرف». نظر الرجل إلى أسفل وقال – «حسن ياسيدتي... قال... »

ثم سكت والحرج يبدو عليه.

قال چورچ: «تكلم... ومهما كان ماقاله»

قال القرداتي: «سردار» «يقول لو أنكما... هذا المساء في أي وقت بين التاسعة والعاشرة وهي فترة الخصوبة السعيدة فإن السيدة سوف تحمل.» ابتسم «چورچ» وهو يلقى نظرة سريعة خبيثة نحو «مارى» التي احمر وجهها خجلا.

قلت لنفسي: «في هذه الحالة يكون «ياما» قد انتصر عليّ.» كنت متاكدا أن «مارى» عاقر وأن القرداتي كان يخدعهما.

ولكن إذا كان من الممكن أن تحمل فلابد أن تنتظر حتى يومى الثالث عشر، وحينذاك يمكن أن أندمج في رحمها لأولد من جديد في هيئة ابن لها. أكون زوجا وابنا.. ويكون «چورچ» هو أبي الثاني..

وبينما كان «چورچ» يدفع للقرداتي أجره رأيت كيس نقوده متضخما... لقد بدآ إذن بعثرة أموالى!

انتهت اللعبة، نهض صاحب العرض، حمل حقيبته القماش على كتفه وجذب المقود مشيرا لحيواناته أن تتبعه.. بدأت الشمس تتسلق السماء، هبط على القلعة سديم برونزى كئيب بينما كانت الزواحف البرية تجرى في كل مكان وهي متعثرة في خطواتها الخرقاء، وعلى مسافة قريبة كنت أرى مياه بحيرة «جنديبت» الفضية وهي تتحول لتصبح رمادية اللون.

«لماذا تبدو القلعة المتهدمة دائما مثل المقبرة؟ «فكرت». هل لها هي الأخرى روح مثل البشر؟ وهل تفكر في ماضيها بحزن حتى تحولت إلى أنقاض تبرز من بينها الأعشاب كما تخرج الحشائش من فم ميت؟»

يبدو أنني قد بقيت مستغرقا في هذه الأفكار طويلا، لأنني عندما عاودت النظر إلى اللوح الحجري وجدت أن «چورچ» و«مارى» كانا قد رحلا.

وبعد دقائق قليلة رأيت سيارتي «الأمپاسادور» تسير بسرعة على طريق «فياچا وادا» في اتجاه البحيرة. فإذا كانت «مارى» قد بدأت شهر العسل الثاني، فإني أعرف وأتوقع مايمكن أن يحدث بعد ذلك.

الحقيقة أنني لحقت بهما في فندق «ستار ليت» المطل على البحيرة. كان «چورچ» يتحدث مع سيدة عند مكتب الاستقبال:

- «لقد حجزت بالأمس بالتليفون.»

- «باسم من، من فضلك؟»

- «السيد والسيدة «كينيث چورچ»...

نظرت الموظفة في السجل أمامها وهزت رأسها...

- «حجزتما الغرفة الموجودة في الركن....»

-«بالضبط!»

كانت «مارى» تقف خلفه هادئة رزينة!

– «حتى صباح الغد..»

– «نعم!»

سمعت السيدة تقول لنفسها: «عاشقان يتظاهران بأنهما زوج وزوجة، لماذا لايذهبان للمعابثة في الحدائق العامة.. خلف الأشجار؟»

ثم قالت: «تفضل.. المفتاح ياسيدي.»

وبينما هما يسيران نحو الغرفة التي كنت قد قضيت فيها شهر العسل، توقفت «مارى» بالقرب من صبارة مرقشة كانت أوراقها متفرعة في الهواء، وأخرجت دبوسا من شعرها المعقود خلف رقبتها ووخزت به ورقة الصبار، فبرزت قطرات من سائل حليبي راحت تنساب على شوكة الأوراق.

سألها چورچ: «لم فعلت ذلك؟»

– «لا أعرف.. ربما كان فعلاً لا إراديا..»

قال حائرا – «ماذا قلت؟»

ظهرت امرأة أخرى من الغرفة المجاورة ونظرت بفضول نحوهما ثم اختفت.

قال «چورچ»: «لندخل، ليس هناك مايدعو لعمل مشكلة هنا.. »

– «متأسفة!»

وتبعته إلى الغرفة. وبمجرد أن جلست على الأريكة قالت:

– «عندما جئت إلى هنا مع «رامى» لأول مرة، رأيته يفعل ذلك بدبوس الكرافتة. كان من عادته أن يقول أن اللبن إذا تدفق في شراييننا بدل الدم فإن الموت يفقد وخزه وقسوته.. وأنه لن يكون مؤلما.»

قال «چورچ» وهو جالس على مسند الأريكة: «تلك نظرية حمقاء!»

«كانت كل نظرياته عن الحياة والموت والفن غريبة»

قال «چورچ»: «مجنون! ولكن لماذا وخزت الصبار؟»

قالت: «لماذا لم تقل لي، هل كنت أحاول أن أقتل ذكري شهر عسلى الأول؟ إن أفضل طريقة لنسيان شيء كهذا هو أن تعيشه مرة أخرى.. أليس كذلك؟!»

- «لا أعرف...»

ثم ساد صمت لفترة قصيرة، بعدها سألته: «ماهذا الطنين الذي أسمعه هنا؟» ونظرت ذاهلة..

- «ربما خرير مياه» جنديت «ياحبيبتي...»

ثم وقف في قلق: «أعتقد أنك تفقدين صوابك..»

- «آسفة...»

- هل تعرفين أين الخطأ يا «ماري» ؟

- «ماذا؟»

- «أنت تحاولين الإمساك برجلين في عقلك، أم ياترى في قلبك؟»

- «ماذا تقول؟ لاتكن سخيفا، لقد مات وانتهى وأتمنى أن يكون والداه قد فرغا من غمر رماده في الجانج الآن.»

- «وأنا أيضا أتمنى ذلك.»

ثم انحنى على رأسها ونزع كل دبابيس الشعر وهو يقول: «لا وخز أكثر من ذلك، لاحليب إلا إذا كان من هنا» وراح يداعب صدرها بأصابعه التي كانت تتحرك الآن على نحرها لتفك البلوزة وحمالة الصدر! ثم همس في أذنها:

- «أتذكرين ما قاله سردار؟ اقتربت ساعة الخصوبة، إنها الآن التاسعة إلا ربعا.»

قالت: «لقد اعتقد القرداتي أننا زوجان، ولكن كيف يمكن أن يحدث حمل قبل الزواج.. كيف ترى ذلك؟»

قال: «شهر واحد فوق ذلك، فترة الحداد، بعده يمكن أن نفعل أي شيء. مفهوم؟»

- «نعم ياحبيبي!»

ثم نهضت كما تنهض عروس البحر من أعماق الماء.

عندما أصبح جسد «ماري» عاريا أمامه استولت شفتاه على رقبتها، ذقنها، كتفها اليسرى، راح يقبلها حتى الخصر..

ثم أمسك بسبابتها بين أسنانه مثلما يمسك كلب «البودل» بيد سيده دون أن يعضها...

- «كل جزء من جسدك له نكهة خاصة! ولكني أحببت طعم الفراولة في فمك أكثر من أي شيء آخر..»

ابتسمت وهي تستدير نحوه وتحدق فيه مثل حيوان مفترس.

- «يبدو أنك ستعطيني حمام لحس!»

- «ولم لا تتركيني أفعل؟»

- «لابد أن أستحم أولا.. طوال هذه الأيام كنت أحس أنني في قبضة أخطبوط سام.. كأنني كنت آكل وأنام مع الموتي!»

- «وهكذا يعود ذهنك مرة أخرى إلى ذلك الرجل!»

سمعت «چورچ» يقول لنفسه: «اللعنة على كل شيء! دائما ماتثير أعصابي... ها أنذا أحاول أن أجهزها وهي تطلق عليّ الأخطبوط والموتى..»

- «حسن! اذهبي إلى الحمام، ربما كنت أنا أيضا في حاجة إلى حمام..»

- «ولكن بعدى..»

- «بالطبع..»

ولكن بمجرد أن دَخَلَتْ الحمام، خلع ملابسه وتسلل وراءها.

- «لا... أرجوك...»

عندما تبعتهما رأيتهما يتبادلان رش الماء كالأطفال في مسبح.. قال وهو يقبل شفتيها وصدرها:

- «تخيلي لو أننا أخذنا حمام شمپانيا..؟ كان يمكن أن يتجرع كلانا جسد الآخر! ألا يكون ذلك مزيجا من شرابين... الجسد والشمپانيا؟»

قالت وهي سعيدة: شراب مسكر.. حقيقي.. هل تعلم أن «رامى» لم يفكر أبدا أن يشاركني الحمام، ومع ذلك كان يتباهي بنفسه كمصور للأجساد العارية وبأنه فنان الجسد؟»

- «ألم يرسم صورا لرجل الأعمال من أجل المال؟ ربما كان يرسم الحوريات الآن في العالم الآخر.. هذا إذا كان قد ذهب إلى الجنة، وليس إلى المكان الآخر...»

قالت «مارى» وهى تضحك: «لاتنس أنه هندوسى وليس مسلما، ولا أعرف إن كانت

السفارجا* الهندوسية تقدم نفس التنوع..»

تمنيت لو أنني أستطيع خنقهما هنا معا تحت الدش بسبب تلك السخرية وذلك الفسق الداعر!

* العالم الآخر – السماء–.

يبدو أنني فقدت الإحساس بتسلسل الزمن. لا أعرف كم يوما مضت منذ جنازتي ولكني وضعت الآن نظاما جديدا يحقق لي بعض السلوى بعد اضطراب الأيام الأولى. أقضي الليل في شرفة منزلي أشاهد تشكيلات النجوم والنهار في الحدائق العامة بالقرب من «ميدان فاتح» مرفرفا فوق حديقة الورد وبركة اللوتس والمساحات الخضراء حول قاعة اليوبيل. تمنيت لو أستطيع أن أرسم الزهور والورود فقط بدل الرسوم العارية والبورتريهات الشخصية وأرفرف حول الورد لأرى كيف يتفجر ليصبح مظلات من التويجات.. مثل راقصات الباليه تنهضن من زهرة لوتس ضخمة في باليه البولشوى. ولكن فوق كل شيء، كان الرنين الصامت للبتلات وهي ترتطم ببعضها مثل الصنجات. صوت لم أسمعه من قبل، ربما كانت الأذن العادية الحية لاتستطيع الاستماع إليه..

كنت دائما أسمع البذرة تبزغ مع صرخة فرح من التربة فتصبح نبتة. كانت الزهرة الصغيرة تشبه العجل حديث الولادة وهو يترنح على أظلافه الصغيرة عندما يفاجأ بالبياض والضوء المبهر على عكس ظلام رحم أمه البارد..

وذات صباح بدت الرياح الموسمية وكأنها قد انطلقت من عقالها غاضبة مرة أخرى. أغرق الماء المتدفق من كل المزاريب على امتداد الشرفة كامل المساحة الخضراء أمام المنزل..

سمعت «مارى» تدعو «رامو» إلى الشرفة الأمامية وتسأله:

- «متى يجئ الكاهن؟»

- «في التاسعة والنصف تقريبا ياسيدتي»

- «وهل يجئ في هذا الجو السيء؟»

- «طلبت منه أن يستقل سيارة أجرة إن كان ذلك ضروريا..»

- «.. وهل انتهيت من الترتيبات الأخرى؟»

- «نعم ياسيدتي..»

ثم ساد صمت، لتعود وتسأله: «وماذا تعني هذه «الكريا»* فعلا ؟ »

– «إنها نوع من وداع الروح قبل أن تحل في جسد جديد..»

– «تناسخ؟ تقمص؟»

– «نعم ياسيدتي...»

– «وهل هذا مايحدث في اليوم الثالث عشر؟»

– «نعم ياسيدتي..»

– «ولماذا ليس في الثاني عشر أو الرابع عشر؟»

– «لا أعرف..»

قالت لنفسها: «أمر غريب! كيف يكون أولئك الهندوس واثقين تماما من معتقداتهم كما لو أن واحدا قد مدد مقام الروح من الموت حتى إعادة ميلادها.؟»

كان الكاهن أول من حضر في سيارة أجرة، تبدو على وجهه علامات الأهمية. إذن فقد حانت أخيرا ساعة حسابي!

شعرت بالارتياح وفكرت أن أي شيء يمكن أن يكون أقل وطأة مما تعرضت له.

بعد وقت قصير، وبينما كان المعزون يتوافدون بسياراتهم أو سيارات الأجرة، «بقشيش»، «كيشورى لال»، «ديشپاندي»، «سودهاكار»، «بالاچي راو»، «سرينيڤاس سوامى» وغيرهم، جاء «جوپال مينون» وزوجته سيرا على الأقدام وهما يخوضان في مساحات الماء الأشبه بالمستنقع أمام الرواق.. كنت أتبع المعزين حتى غرفة المعيشة فرأيت في الوسط وعاء حديديا به بعض شظايا خشب. وعلى بعد أقدام كانت هناك شمعة بيضاء تشتعل شاحبة في ضوء النهار، في نفس البقعة التي كانوا قد وضعوا فيها جسدي قبل تحميله في السيارة البيك آب..

جلس الكاهن على جلد نمر فردوه له على الأرض. في مواجهة الوعاء كان يوجد الزبد والكافور والسكر والقرفة. ثم طلب من أبي وأمي أن يجلسا أمامه في الجهة المقابلة.

أشعل والدي شظايا الخشب وصبت أمي الزبد فتصاعدت ألسنة اللهب عفية، وبدأ الكاهن في التلاوة بينما الجميع جالسون في صمت تام. لاحظت أن معظم مايترنم به كان هو نفس ماسمعته عند إحراقي، عندما كان الكاهن يكرر عبارات من «الجيتا»** تطلب من البشر ألا

---

* طقس بقيمه الكاهن الهندوسي لوداع الروح (المترجم).

** أنشودة العظيم التي توضح طبيعة الانسان والكون وهي جزء من المهابهاراتا (المترجم).

يولولوا على الميت لأن الروح خالدة.

بدأت ساعة الحائط في شرفة منزلي الخلفية تدق العاشرة. تذكرت كيف إنني عندما ظهرت خارجا من نهر «موسى» كنت قد سمعت ساعة البرج تعلن نفس التوقيت بعد حديثى مع «ياما». شعرت بقوة غامضة تجذبني خارج البيت.. وعاليا إلى السحب البعيدة..

ورأيت نفسي أخيرا ريشة في مهب الريح.

- «وهكذا نلتقي هنا مرة أخرى».

استدرت نحو مزقة طويلة من سحابة سوداء جاء منها الصوت.. صوت «ياما» بالتأكيد.. وكانت السحابة تلوح أمامي نسرا مفرود الجناحين..

قال الصوت: «أرى أنك عرفتني..»

- «نعم ياسيدي، وأعتقد أنها ساعة الحساب...»

- «فعلا..»

- «تعرف ما مررت به منذ آخر لقاء!»

- «بالتأكيد..»

قلت مستعطفا: - «هل تتكرم إذن بأن تكون رحيما متفهما!»

- «أنت تنسى أن هذه ليست وظيفتي.. عملى هو أن أقتل فقط.. وأن أستدعي الأرواح لتقف أمام الخالق..»

- «ولكن الكثير يتوقف على طريقة عرضك لحالتي..»

رد ساخرا: - «وهل تظنها محكمة بشرية يعتمد الحكم النهائي فيها على بلاغة الدفاع؟

إن كل روح تظهر أمامه عارية، مجردة من كل دفاعاتها، والمؤكد أنك تعرف أن الخالق عليم بكل شيء...»

- «وهو أرحم الراحمين!»

- «ماذا تريد بالضبط؟»

- «ألا أستطيع أن أطلب الصفح، ألم يوعد البشر بعفو من الله ومغفرة؟»

قال «ياما»: «مجرد كلمات.. إن رحمة الله تنزل على من يظهرون استعدادا للتعلم، وعلى

من يحاولون إصلاح طريقهم وليس على الضالين من أمثالك... الراسخين في الفساد والمعصية. ماذا كنت تفعل طوال الأيام الثلاث عشرة الماضية؟ أتمنى أن تكون قد بدأت تعرف معنى الحياة.. كأسك المقدسة..»

– «هذا رمز مسيحي وليس وثيق الصلة بحالتي..»

– «وهكذا تستمر في وقاحتك اللامحدودة مرة أخرى..»

ثم وَمَضَ الصوت مثل برق يمزق السماء...

– «متى يفهم البشر أننا لايمكن أن نكون وسطاء في مثل هذه الأمور؟ إننا نمقت الحواجز التي رفعتموها بين الإنسان وأخيه الإنسان.. ولذلك لاتعرف إلا الرموز الهندوسية مع إنك متزوج من مسيحية... هل من أجل تنورتها؟ أليس كذلك؟ دعني أقول لك أن الأمر سواء بالنسبة للخالق، طريق «بوذا» الثماني نحو الخلاص، الوصايا العشر، الوحي الذي نزل على «محمد» أحاديث «كريشنا» في «البهاجا ڤادجيتا»... كلها أوجه مختلفة للحقيقة ذاتها..

وعلى أية حال أنا استخدمت الكأس المقدسة كرمز.. مجرد رمز.. ولكني أعرف أنكم سوف تتقاتلون حتى على البقر والخنازير والخراف.. وكلها رموز..» ثم صمت «ألست أضيع وقتي في الكلام مع روح عادت من الأرض عارية وغير نادمة؟»

– «عفوا ياسيدي»

– «لايجدي معي شيء من ذلك!»

– «كيف أعتذر إذن؟ أثق أنك تدرك ندمي بالفعل.»

ثم ساد الصمت مرة أخرى. بعدها عاد الصوت لهدوئه كما لو كانت كلماتي قد لمست وترا رقيقا بداخله... فقال...:

– «ولكن قل لي، لماذا يحب البشر المعاناة والآلام بينما يمكنهم تحقيق السلام بلحظات من الصلاة كل يوم؟»

قلت: «وهذا مايقوله لنا الكهنة أيضا..»

– «هل يمكن أن تدعنا من أولئك المحترفين وتتركهم لشأنهم؟»

وبدا «ياما» غاضبا... «نحن نتعامل معهم بما يناسبهم، ومعظمهم يولد مرة أخرى في هيئة ثعلب أو ببغاء أو حرباء»...

- «أنا سعيد أن أسمع ذلك..»

- «ولكن ألم يكن لديك بعض الوقت للصلاة؟»

قلت: «أعتقد أن السبب ضرب من التمرد على أرثوذوكسية أبي. تعرف أنه حاول أن يغرس فيّ تعاليم من «الجيتا» و«الأوپانيشاد» وكل الكتب المقدسة...

لم يتركني أصل إلى الله بطريقتي.. كنت دائما مدفوعا.!»

- «وهكذا تحولت إلى التطرف الآخر.. رسم الصور العارية..»

شعرت بأنني محاصر.. ولكن سرعان ماهب ذكائي لينقذني...

- «ولكنها بالنسبة لي كانت مجرد موضوعات للتفكر .. ألا يعتبر ذلك ضربا آخر من التأمل؟»

ضحك «ياما». وشعرت بالسعادة لنجاحي في تهدئته. أعرف أن حضور البديهة والإجابة السريعة تحققان أكثر مما يحقق الإسهاب في الكلام.. ولكنني أدركت أيضا أنني أخطأت...

قال إله الموت مقاطعا: «هذا خداع للنفس.. إن تصوير امرأة عارية ماهو إلا مقدمة لمسرحية تنتهي دائما في الفراش...»

- «ليس دائما.. لقد ذهبت مع «ريزيا» إلى الفراش دون....»

قال: «ذكرت ذلك من قبل.. وتلك حيلة أخرى. لعب بالنار. مجرد تفكير المرء بشيء شهواني نعتبره خطيئة.. هل تذكر كيف تلخص «الجيتا» ذلك.؟:

«عندما يفكر المرء في أشياء تتعلق بالحواس

تولد الجاذبية

ومن الجاذبية تنمو الرغبة

الرغبة تشتعل وتصبح عاطفة جامحة

والعاطفة تولد الطيش

حينذاك تضل الذاكرة..

فتقوض العقل...»

قلت وقد سحرتني تلاوته المؤثرة «هذا تفصيل منطقي، ولكن لماذا خُلِقَتْ المرأة إذن؟»

– «للإنجاب... فقط.. وليس للاتصال الجنسي غير الشرعي ... أليس كتابكم المقدس اليوم هو الكاماسوترا* وليس «الجيتا» ؟»

– «كتابي أنا ياسيدي ؟»

– «وكتاب كل أمثالك من الصفوة...»

– «لا أعرف، ولكن أليست الكاماسوترا عملا فنيا.. من ناحية الأسلوب على الأقل؟ المؤكد أنه ليس كتابا عاديا عن الجنس.. أعتقد أنه رؤية فنان للعرى.»

قال مزمجرا: «العرى والفن! إذا كان ذلك هو هاجسك فقد كان بإمكانك أن ترى المقدس في الطفل العارى.. إنه تجسيد حقيقي للبراءة والطهارة.. ما رأيك في تصوير «كانجارا» لكريشنا طفلا عاريا؟ ما رأيك في تصوير «مايكل أنجلو» للمسيح طفلا؟ ولكني أعرف أنك كنت مهتما بجسد المرأة فقط.. ولذلك دعنا نطلق عليه اسم الفسق والفن وليس العرى والفن!»

لمس وجداني شيء مما قال فهتفت: «اقتراح رائع! اعطني إذن فرصة أخرى... أرجوك.. سوف أصور الطفل هذه المرة... إن هذه الرؤية وهذا الإلهام كان لابد أن يوحى إليَّ بهما فنان زميل...»

قال الصوت: «تملق ومداهنة... هل تحاول أن تخلق سببا لكي تولد مرة أخرى على هيئة بشر؟ فنان؟ ألم أخبرك بأن ذلك ليس من شأني؟»

قلت: «لم أقصد ذلك. إنها مجرد فكرة طرأت لي.. وعي مفاجئ بأن حياة ثمينة قد تم تبديدها.. هباء...»

– «كلمات... مجرد كلمات...»

– «لا... ألست تعرف كل شيء..؟»

صمت. هل اختفي؟ ولكن الصوت عاد مرة أخرى:

– «حسن! لابد أن أنصرف. شيء غريب!. هذه هي المرة الثانية التي تؤخرني فيها... رغم أن عليَّ أن أستعد لاستقبال ثلاثة آلاف روح قادمة من مكان واحد فقط...»

* كلمة سنسكريتية من مقطعين: «كاما» تعني اللذة أو المتعة و«سوترا» تعني تفصيل القول أو الشرح في شيء معين، والمقصود كتاب «الكاما سوترا» الذي يترجم أحيانا «كاما شاسترا» وهو منسوب إلى «ڤاتسيايانا» ويتناول تحقيق اللذة أو المتعة (المترجم).

سألته: «أعمال شغب وعنف طائفي في الهند؟»

– «أنت تنسي أن الهند ليست ميدان عملياتي الوحيد.. بالإضافة إلى أنه ليس شغبا هذه المرة... لقد سمحت بحدوث تسرب في أحد المصانع النووية.. ولذا فإن قرية قريبة من هنا سوف تختفي بكاملها من الوجود بحلول المساء...»

– «في الولايات المتحدة؟»

– «لا... في روسيا، ولكن الولايات المتحدة يمكن أن تستفزني أيضا. أنا مصمم على عمل شيء على نطاق واسع إذا لم تكف القوى الكبرى عن اللعب بالذرة على هذا النحو الشيطاني..»

شعرت بالسعادة لأنه أشركني في هذه المعلومات السرية. هل كان ذلك تعاطفا منه معي فعلا؟ ظل هذا الإحساس ملازما لي منذ أول لقاء معه.

– «الآن وقد انتهي دوري أتركك أمام الله..»

– «أين سأقابل خالقي...؟ أرجوك... » وكنت أشعر بخوف يتملكني...

– «هنا بالضبط... وفي أي وقت...»

دمدمة في السماء يتردد صداها في طبقات الجو، افترقت السحب كأنها تفسح طريقا للمرور... ثم هدر صوت عميق رنان من سحابة كبيرة بيضاء.

«لقد سمعت ورأيت كل شيء، سوف أتركك تعود إلى الأرض لتكمل عملك، سوف تشهد عظمتي في الطفل العارى، لاتجعل الغضب رفيقك، مبارك من يعفو وينسى... وليصحبك السلام..»

آه لو كانت الروح تستطيع أن ترقص فرحا! كل هذه البركة لي.! ولكن كيف كنت أستحق عطفه ورضاه؟

سمعت جلجلة أجراس المعابد وتراتيل تتردد بنفس لغتي.. وكانت الأصوات تتدفق على مسمعي وهى تعلو.. وتعلو...

كان راديو جارنا الذي ينقل تراتيل صباح الأحد من معبد «ڤينكاتيسوارا» في «تيروپاتي» هو الذي أخرجني من حلمي الطويل. عندما طردت النوم من عيني وأنا مازلت ممددا على الأريكة لاحظت أن يدي اليمنى كانت فوق صدري، وأن قلبي كان يقفز مثل حصان يعدو فوق طريق ممهدة. هل كنت بالفعل على قيد الحياة؟

وعندما جلست على الأريكة لمحت عيناي على الطاولة الصغيرة المجاورة عنوان كتاب «الحياة بعد الموت»، فتركت أصابعي تجري على زجاج الطاولة وتتحسس الزوايا النحاسية التي تمنعه من الإنزلاق.. فوق رأسي معلقة ثريا تشبه الآن إلها متعدد الأذرع... أشعة الشمس تخترق الغرفة من بين ثغرات في الستائر فتضيء السجادة وتزهو ألوانها المتعددة.

امتد بصري نحو البقعة الطرية في سقف الغرفة وكانت قد جفت إلا قليلا، وبدل أن تشبه الحيوان الزاحف واسع الشدقين كانت قد أخذت الآن شكل البجعة الضخمة المرفرفة بجناحين من البياض في الهواء!

بعد ذلك جاء «پيتر» يتدحرج مثل كرة بيضاء من القطيفة وهو يهز ذيله، لف وسطه وقفز على حجري، وبينما أنا أمسد رقبته وأداعب خطمه مد لسانه وبدأ يلعق وجهي..

- «هل أنت سعيد؟ كنت أحسب أنني فقدتك..»

تركته كامنا على حجري يلتمس الدفء، ولكن أين «مارى»؟ هل مازالت في السرير؟ تذكرت دون وضوح تام كيف عدت إلى المنزل في الليلة الماضية في ثياب «بابار».

تتابع مضطرب لصور حزينة تتزاحم في رأسي: الاغتصاب، صراع الديكة، جريمة القتل، «مارى» و«چورج» في الحمام.. مر وقت طويل قبل أن أتمكن من فصل الخيال عن الواقع. كان عقلي مايزال غارقا في الحلم المزعج عندما فتحت «مارى» الباب برفق ودخلت.

قالت وهي تربت على رقبة «پيتر»: «صباح الخير يا «رامي»، لقد نمت طويلا ياحبيبي..»

كان صوتها رقيقا ومحبا.. تركت «پيتر» يقفز من حجري وحدقت فيها مدهوشا.. هل ما أراه أمامي رؤية مزدوجة؟ عندما قمت من على الأريكة تذكرت أن تلك المكالمة التليفونية الغامضة

من «كينيث چورچ» هي التي كانت قد ألهبت شكوكي....

– «أما تزال غاضبا مني؟»

قلت بصوت خفيض وعيناي على وجهها: «لا أعرف..» ثم بدأت مع ارتفاع غضبي: «من كان ذلك الرجل؟»

قالت وهي تبتسم ابتسامة لعوب: «تقصد «كينيث چورچ» ؟»

قلت: «لماذا لا تقولين صراحة؟»

– «حسن! إنه شخص لاتعرفه..»

– «ولكن لابد أن أعرفه»

– «حقيقة؟»

رأيت نظرة خبث في عينيها. وبينما كنا نتحدث ظهر «رامو» عند الباب ممسكا في يده بجريدة الصباح....

– «الجريدة ياسيدي... هل أحضر لك القهوة أيضا؟» ، قالها «رامو» وهو ينظر لكلينا نظرة فاحصة..

قلت وأنا أتناول الجريدة منه وأضعها على الطاولة:

«فيما بعد...» ، ثم استدرت إلى «مارى» :

– «نعم لابد أن أعرف...»

– «هو صديق دراسة قديم»

– «ولماذا اتصل بك؟»

أحسست كأن أشعة ليزر تنطلق من نظراتى لكى تخترق عقلها...

«كان يطلب سلفة، اتصل أكثر من مرة» ، ثم أضافت بصوت محايد: «ولكنني أعرف أنه لايعيد روبية واحدة يقترضها. إنه فعلا عالة على الآخرين..»

شعرت كأنني تحت قصف رعدي أو ما شابه، فهمهمت: «ظننته...» ابتسمت «مارى» وهي تكمل عبارتي «عشيقي! هل جننت؟ إن خيال الفنان يمكن أن يكون لعنته وسبب شقائه أيضا» .

– «نعم!»

– «لا أتصور أن خيالك يمكن أن يشطح بعيدا هكذا.. تصورتها حالة من حالاتك ولذا تركتك تنام بمفردك ليلة أمس، رغم شعوري بأنني كنت أريد.....»

–«ياإلهي!»

– «أتمني أن تكون قد رأيت أحلاما سعيدة..»

– «كان كابوسا!»

ردت بشيطانية: «تستاهل» !

قلت لنفسي، «فعلا أنا أستحق ذلك، كم تمنيت أن أخرج من نفسي وأراقب تحركاتي كأن جسدي قد انفصل عني تماما..» وبعين الخيال رأيت إصبعي يشير نحوى بالاتهام..

ألست نفس الشخص الذي خان زوجته مع «ريزيا» ؟ وهل عرفت «مارى» المسكينة من كانت تلك المرأة الأخرى ؟

سألتني: «هل تريد بعض القهوة الآن ؟»

– «وماذا عنك ؟»

– «سأتناول قهوتي بعد الحمام..»

اقتنصت نظرة إليها، تبدو نفس الفتاة الشابة التي كنت أغازلها منذ سنوات مضت.. نفس طالبة الفنون التي تحدت والديها لتتزوجني أنا الهندوسى..

وفجأة شعرت بالدم الحار يتدفق في شراييني فقلت:

– «إذن سأنتظر أنا أيضا... ولنأخذ حمامنا معا..»

–«ماذا ؟»

– «نعم.. هكذا..!»

– «لا أعرف ماذا يدور بعقلك.. أنا أمام «رامى» مختلف تماما..»

قلت: «ربما، ولكن ماهو المبلغ الذي طلبه چورچ ؟»

– «ألف روبية»

- «ولم لانعطيه إياها.؟ المبلغ ليس كبيرا..»

قالت: «أنا شاكرة لذلك، ولكنك لاتريد أن تضيع هذه النقود علينا!»

- «لايهم»

- «إذن هيا، اطلبه أنت.. سأعطيك رقم تليفونه.. هذه جنازتك...»

- «لقد مررت بها بالفعل..»

- «ماذا؟»

- «لاشيء..»

- «تقول ألغازا ياحبيبي؟»

- «أليست هي الطريقة الوحيدة؟»

- «هكذا تعود مرة أخرى إلى الموضوع...»

عرفت أنني أضايقها. قلت: «ثم هناك شيء آخر... أرغب الآن في تجربة شيء جديد في الرسم...»

- «عارية تحت الدش؟»

- «لا.. بل أطفال عرايا... أليس الطفل العاري هو أنقى مافي الوجود؟ أليس هو الصورة الحقيقية للإله؟»

- «براڤو! وهل تنوى ياحبيبي أن تترك عراياك الأخريات؟»

وتجهم وجهها كما لو كانت فكرة مقبضة قد عنّت لها.. ثم تنهدت وقالت: «أعتقد أنني أعرف لماذا تريد أن تغير توجهاتك...»

- «صحيح؟»

- «ذلك لأن خيالك يود أن يردم هوة بيننا... فأنا لا أستطيع أن أهبك طفلا...»

- «لا ياحبيبتي...»

وتحركت لأحيط خصرها بذراعيّ لكنها حررت نفسها مني بلطف وانصرفت.. قررت أن أتبعها إلى الحمام متمنيا أن يخرجها ذلك من موجة الاكتئاب... ولكن وأنا أهم بالخروج من

غرفة المعيشة وقعت عيني على خبر منشور في مربع على الصفحة الأولى من جريدة الصباح...

«**وفاة نواب سليمان على**». أذهلتني المفاجأة فالتقطت الجريدة لأقرأ التفاصيل:

توفي ليلة أمس «نواب سليمان على» سليل الأسرة
المغولية العريقة على أثر أزمة قلبية مفاجئة، مخلفا اثنين
من الأبناء هما ابنته «ريزيا» وابنه «بابار». برحيل نواب
سليمان على فقدت ولاية «أندرا برادش» ومدينة «حيدر أباد»
على نحو خاص راعيا عظيما للفنون والموسيقى والغناء
والرقص. تبدأ الجنازة من «قصر جولشان» مساء، وسوف
يوارى جثمانه الثري في مدافن العائلة في خيرت أباد..»

وأنا ممسك بالجريدة، خيم على إحساس غير عادي. كيف استطاع حلمي أن يتنبأ بموته؟ ثم أدركت كيف أحبط هذا الخبر الحمام الذي كنت أتطلع إليه.

لم أكن قد هاتفت «ريزيا» من منزلي أبدا، لكن حيث أن «مارى» في الحمام الآن، قررت أن أتصل بها.. آه.. لو أن بإمكاني أن أقول لها شيئا عن حلمى..!

عندما ردت عَلىّ قلت: «أنا في غاية الأسف... لقد قرأت الخبر في الصحيفة لتوى..»

— «وأنا أيضا حزينة رغم....» ثم توقفت.... «أنت تعرف كيف كنت أشعر نحوه... وبالمصادفة فإن مانشر بالجريدة لم يكن واضحا... إن «سمرخان» هو الذي كتبه.»

— «ماذا؟»

— «لم تكن الوفاة بسبب أزمة قلبية، لقد خنقه عامل الحديقة في سريره.»

— «والد «محبوبة» ؟»

— «نعم....»

مر صمت قصير، زحف على عمودي الفقري شعور جمدني في مكاني، كنت على الحد الفاصل بين الهذيان والحقيقة...

قلت: «سوف أحضر من أجل الجنازة يا«ريزيا» رغم أنك لم تحضري جنازتي....»

– «ماذا؟»

– «لا أعرف ما الذي جعلني أقول ذلك..»

– «ماذا حدث لك؟»

– «لاشيء...»

– «أتمنى ألا يصيبك مكروه..»

– «ريزيا»

– «نعم....»

– «هل تؤمنين بالوحى... بالأحلام؟»

– «لم أفكر بتلك الأشياء من قبل، لماذا تبدو هكذا وكأنك في عالم آخر...»

– «أنا بخير.. قصدت فقط أن أسأل هل تؤمنين بأن هناك شيئا يمكن أن يغير مدركات الإنسان الحسية، مثل الجنين الذي يغير جنسه بشكل خارق في رحم الأم.. مثل اليرقة التي تنبت لها أجنحة وتدب فيها الحياة الجديدة؟»

– «هل هذه نظرية جديدة من نظرياتك الغريبة؟»

قلت وأنا جاد: «لا.. بل كنت أحاول أن....

– «حسن! دعنا نناقش ذلك بعد الجنازة...»

هل تنتظر لحظة، سوف أعطيك مجموعة أخرى من ملابس «بابار».

وفترة صمت أخرى.

لا أعرف ماذا أقول. أشعر بأنني في فخ.. قلت متعثرا: «ريزيا»، كنت أود أن أخرج مع «مارى» هذا المساء إلى بحيرة «جنديبت» و«جولكوندا»..

انفجرت فيّ: «هكذا، وفي مثل هذ الظروف؟ لاداعي لأن تحضر من أجل الجنازة أيضا».. تمنيت لو أنني أصبح روحا بين لحظة وأخرى لكي أستمع إلى أفكارها. ذهب قلبي إليها.. ولكن بلا حول ولا قوة. كيف يمكن مقاومة قوة تجذبني الآن في اتجاه آخر؟

همستُ: «ريزيا...»

لم أسمع ردا.. بل صوت تنفس مخنوق..!

– «أرجوك، دعيني أشرح لك... » قالت بصوت مبحوح: «وهل حدث أن كانت الشروح قادرة على أن تشرح شيئا..؟»

– «لحظة واحدة أ...ر... جـ.... و.... ك... »

ولكنها وضعت سماعة الهاتف.

أما أنا فقد بقيت ممسكا بالسماعة في يدى كأنها طائر ميت أصبته للتو... بطنه الدافئ ينبض في تجويف راحة كفي..

«مارى» في الحمام. وفي صمت المنزل العميق كان يأتي صوت مذياع جارنا الذي ينقل الترانيم والابتهالات من معبد الإله «ڤينكاتسوارا..» والآن انتبه جيدا إلى ترتيلة ظلت تتردد مثل لازمة متكررة في أغنية:

«يأتي الميلاد دون أن يفهمه أحد

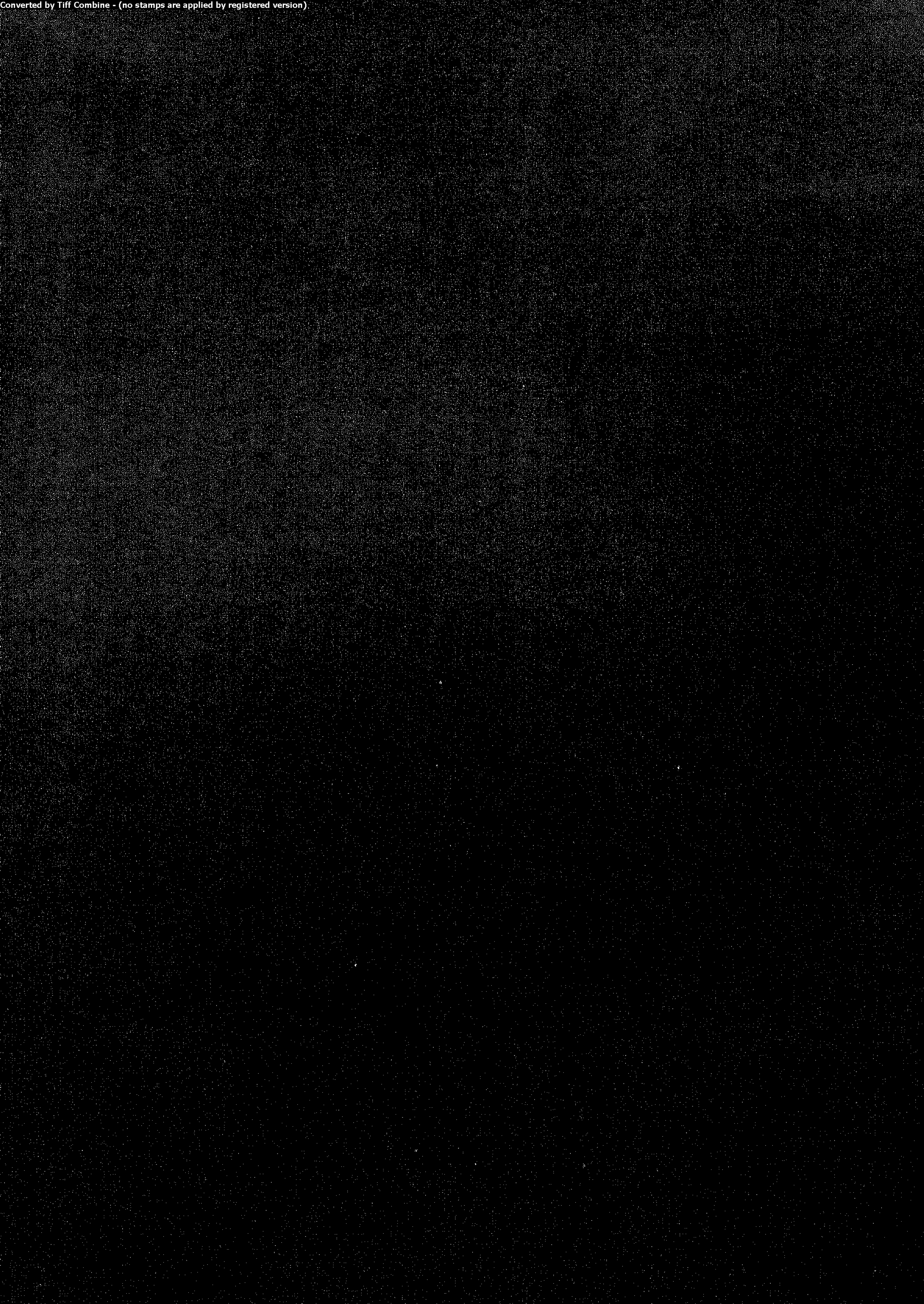
ويأتي الموت دون أن يفهمه أحد

وبينهما

تدرك الكائنات كل شيء...»





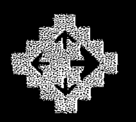


شيف ك. كومار

كاتب هندى ولد لأسرة هندوسية في «لاهور» حيث تلقى تعليمه حتى درجة الماجستير، ثم نزح في ١٩٤٧ إلى «دلهى» بعد التقسيم حيث عمل بالتدريس ثم في إذاعة الهند. كما، رأس تحرير مجلة أدبية قبل ذهابه إلى «كمبردج» للحصول على الدكتوراه.

شاعر وروائي وكاتب مسرحي ومترجم، وانتخب أثناء إقامته في انجلترا زميلا في الجمعية الملكية للآداب.

يعيش الآن في حيدر أباد مع أسرته ويقسم وقته بين القراءة والكتابة والعمل في الحديقة والاستماع إلى الموسيقى ومراقبة الطيور..



دار شرقيات للنشر والتوزيع